صِدام الحضارات

محاولة للفهم

أبعاد وأسباب ومآلات العدوان الأمريكى على الأمة الإسلامية

أ.د. عبد الرازق مِقرى







د. عبد الرزاق مقري

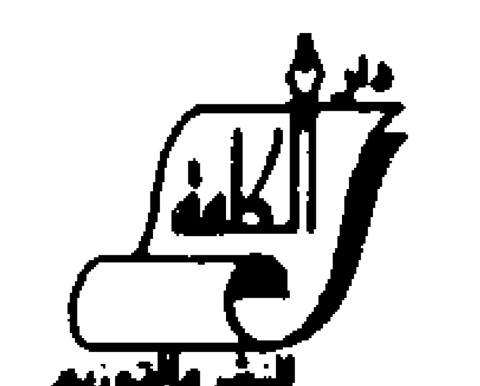
دار الكلمة - المنصورة

الطَّبعَة الأولَى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

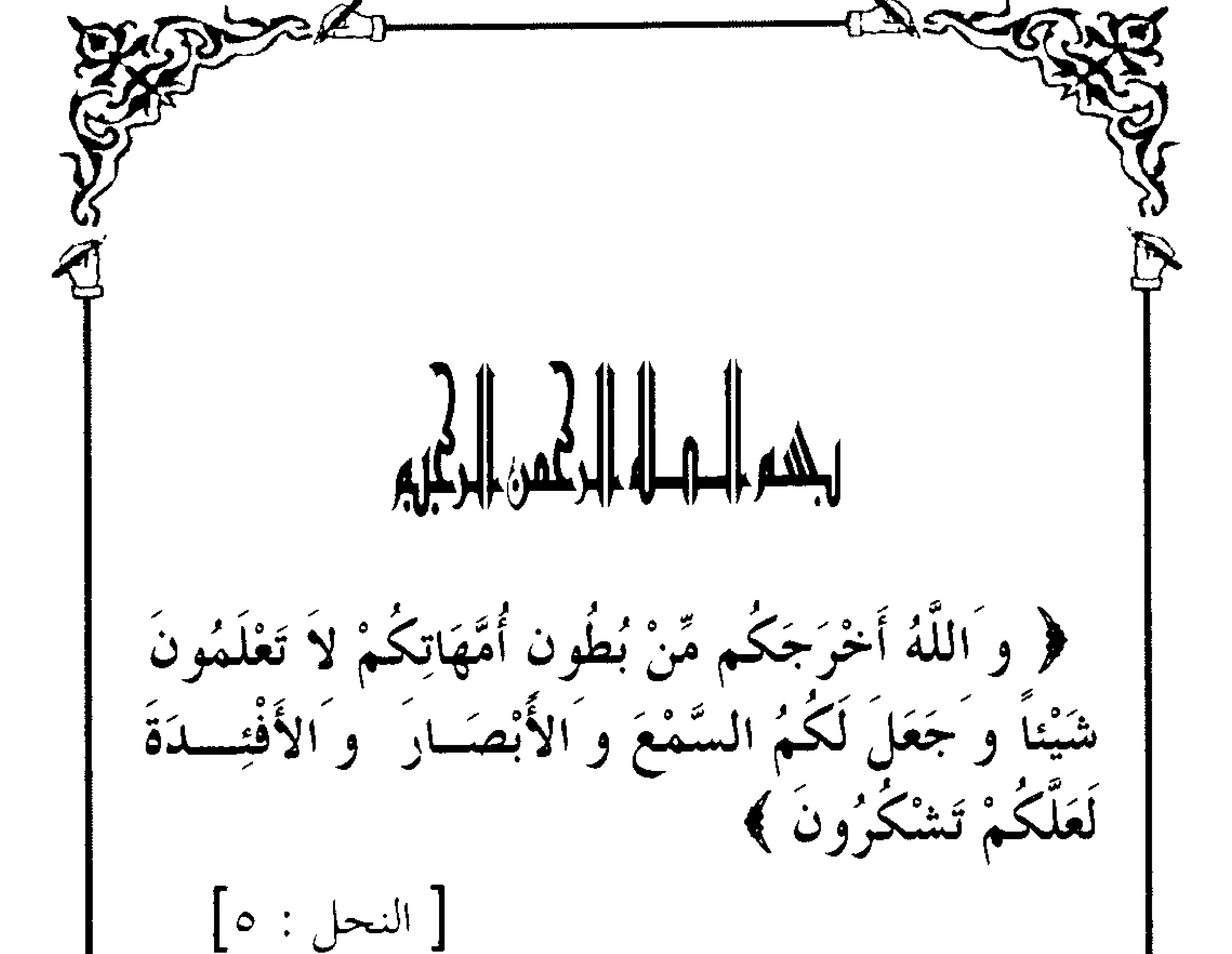
رقم الإيداع : ٢٠٠٣/١٥٤٣٦ م

الترقيم الدولي : ٩ - ١٨٤ - ٣١١ - ٩٧٧



دار الكلمة للنشر والتوزيع - مصر - المنصورة

٣٨ ش الثورة (السكة الجديدة) ت ، ف : ٢٢٤٣١١٥ ص . ب : ١٦٧



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُون أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

[النحل : ٥]

الإهداء

إلى فضيلة الشيخ محفوظ نحناح الذي آزرني ابتهاجه وفرحه بهذا الكتاب وخاصة عنوانه وموضوعه حينما سلمت له مسودة منه وهو على فراش المرض في باريس وكان يود لو يكتب لي تقديما يبارك فيه هذه المحاولة فطلب منّي أن أعد له كلمة في هذا الشأن يمضيها فلمَّا رجعت لم أجرؤ على أن أفاتحه في الموضوع مرّة أخرى لشدة مرضه.

فأسأل الله له الشفاء العاجل وأن يتلطف به سبحانه، وما هذا الكتاب إلاّ حسنة من حسناته الجارية.

تقبل الله منا ومنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

تمهيد

لقد سبق لي أن تناولت موضوع صدام الحضارات عدة مرات في محاضرات كثيرة داخل الوطن وخارجه قبل التحولات الدولية الأخيرة، ولم أكن أتوقع أن هذا الصدام ـ الذي نبأ به صامويل هنتنجتون في مقالته المشهورة التي نشرها في مجلة شؤون دولية الأمريكية ثم في الكتاب الذي ألفه في نفس الموضوع والذي ترجم إلى عدة لغات ـ سيقع بهذه السرعة وبهذا العنف، وأن العالم سيصير إلى ما رآه هنتنجتون قبل أكثر من عشر سنوات مما يجعل الإنسان يعتقد بأن مثل هذه الدراسات هي في حقيقة الأمر خططٌ واستراتيجيات تقدمها مكاتب الدراسات وعلماء المستقبليات والاستراتيجية للمؤسسات الأمريكية لِيُطَّبَقَ منها ما يتلاءم مع الأوضاع القائمة وما يضمن دوام السيادة الأمريكية الغربية على العالم .

لذلك يجب علينا أن لا نستهين بما تنشره مراكز البحوث والدراسات، خصوصا في ما يتعلق بأمتنا وحاضرنا ومستقبلنا، فالذين انتقدوا اهتمامنا بنظرية صدام الحضارات قبل عشر سنوات وخطورة المخططات الأمريكية المستقبلية آنذاك واعتبروا بأننا نهول الأمور بشأن عداوة أصحاب القرار في الغرب للمسلمين واستعدادهم لتنفيذ كل المخططات من أجل إدامة تبعيتنا ـ له لا أعتقد بأن هؤلاء يمكنهم اليوم الاستمرار في هذا الادعاء والركون إلى هذا الاطمئنان .

إن فهم ما يخططه الغرب عبر ما يكتبه أصحاب الرأي في موضوع العلاقات الدولية بشكل عام، وحول ما يتعلق بالعالم العربي والإسلامي بشكل خاص أمر ضروري لمواجهة المخاطر المحدقة بالأمة العربية والإسلامية ولتحديد سبل التعامل مع الغرب وكيفية الاتصال به والتعاون معه حين يقتضي الحال، أو مقاومته ومواجهته حين يلزم الأمر ذلك، مثلما هو الحال في هذه الفترة الحرجة من تاريخ علاقات الإسلام بالحضارة الغربية .

وللمساهمة في توفير هذا الفهم أردت أن أضع بين يدي القارئ المسلم هذه المحاولة وهي نتاج مطالعات كثيرة في ما كتبه باحثون غربيون عن موضوع العلاقات بين الأمم والأوضاع الدولية الراهنة، وقد انطلقت في محاولة فهم هذا الموضوع من دراسة كتاب صدام الحضارات لصامويل هنتنجتون ولا شك أن القارئ سيلاحظ تحيزا واضحا من قبل لصاحب الكتاب للإسلام وأهله وأوطانه وثرواته وماضيه وحاضره ومستقبله وهو أمر أتشرف به بطبيعة الحال وأدعيه وأدعو له سائر المسلمين . فهذه هي ثقافتي وهذا هو انتمائي وهذا هو المنطلق لكسر قيود التبعية وإزالة عوائق البناء وشهود بوارق الأمل وتحقيق الرقي والازدهار لأوطاننا وشعوبنا .

لقد كانت بداية هذه المحاولة عبارة عن محاضرة ألقيتها باللغة الفرنسية في كوتونو عاصمة دولة بينين بمناسبة المؤتمر الثاني للمنتدى الدولي للمسلمين في الفضاء الفرنكوفوني (CIMEF) يوم ٢ـ ٥ أكتوبر٢٠٠٢م ثم طورتها بعد ذلك وفق التطورات الجديدة لألقيها باللغة العربية في ماركفيلد ببريطانيا بمناسبة مؤتمر)مستقبل منطقة الشرق

الأوسط بعد أحداث سبتمبر والحرب على العراق(الذي عقده مركز المنظور السياسي في ١٢ ـــ ١٣ أبريل ٢٠٠٣ م. وبالاتفاق مع إدارة المركز قُرِّر نشر الموضوع في كتاب مستقل مما تتطلب القيام ببعض الإضافات لهذا الغرض، كما أن هذا الموضوع سينشر على أجزاء في الدورية الرسمية للمجلس الشعبي الوطني (البرلمان) بطلب من إدارة الدورية .

يتضمن موضوع الكتاب في صياغته الأخيرة مقدمة وخمسة فصول وقد قدمت في الفصل الأول عرضا مختصرا لكتاب صدام الحضارات قابلت فيه وجهة نظر صامويل هنتنجتون من خلال ما كتبه في تقديم كتابه وبيان موضوعه بوجهة نظر أخرى ناقدة من زاوية إسلامية ثم حاولت في الفصل الثاني تفسير هيمنة الذهنية الصدامية عند الغرب من خلال مرجعياته الفكرية والتاريخية ودوافع المصالح.

وبعد ذلك تطرقت في الفصل الثالث إلى صلب الموضوع الذي يحتل الحيز الأكبر في الكتاب والذي أعرض فيه تطورات السياسة الصدامية الغربية من الناحية الفكرية والثقافية ومن الناحية العملية ابتداء من صراعات الوجود في فجر الإسلام إلى العدوان على أفغانستان بحجة الحرب على أفغانستان والعدوان على العراق بحجة نزع أسلحة الدمار الشامل بالإضافة إلى العدوان الدائم على فلسطين وأبعاد ذلك كله وأسبابه ومآلاته ثم ركزت في الفصل الرابع على موضوع العراق واحتمالات التطورات المقبلة وأثر كل احتمال على الأمة العربية والإسلامية وعلى العالم بأسره ثم اقترحت في الفصل الخامس ما يجب القيام به أمام التحديات التي تطرق إليها الكتاب.

وفي الأخير أختم الموضوع في الفصل السادس ببيان فضاءات الأمل الدالة على اقتراب زوال العتمة وبزوغ فجر الإسلام من جديد بشهادة النصوص والتاريخ والواقع.

ولا يفوتني في الأخير أن أشكر كل من أتاح فرصة التطرق والبحث في هذا الموضوع وساهم في مناقشته وإثرائه ومن شجعني على طبعه ومن ساعدني على إعداده تقنيا واذكر من هؤلاء : طارق وأمين وزاهر وعزوز وعامر وأحمد ومن هؤلاء زوجتي التي تكفلت بالمراجعة اللغوية والمؤازرة المعنوية.

والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الجزائر في: ٢٨ مايو ٢٠٠٣م

د . عبد الرازق مقري

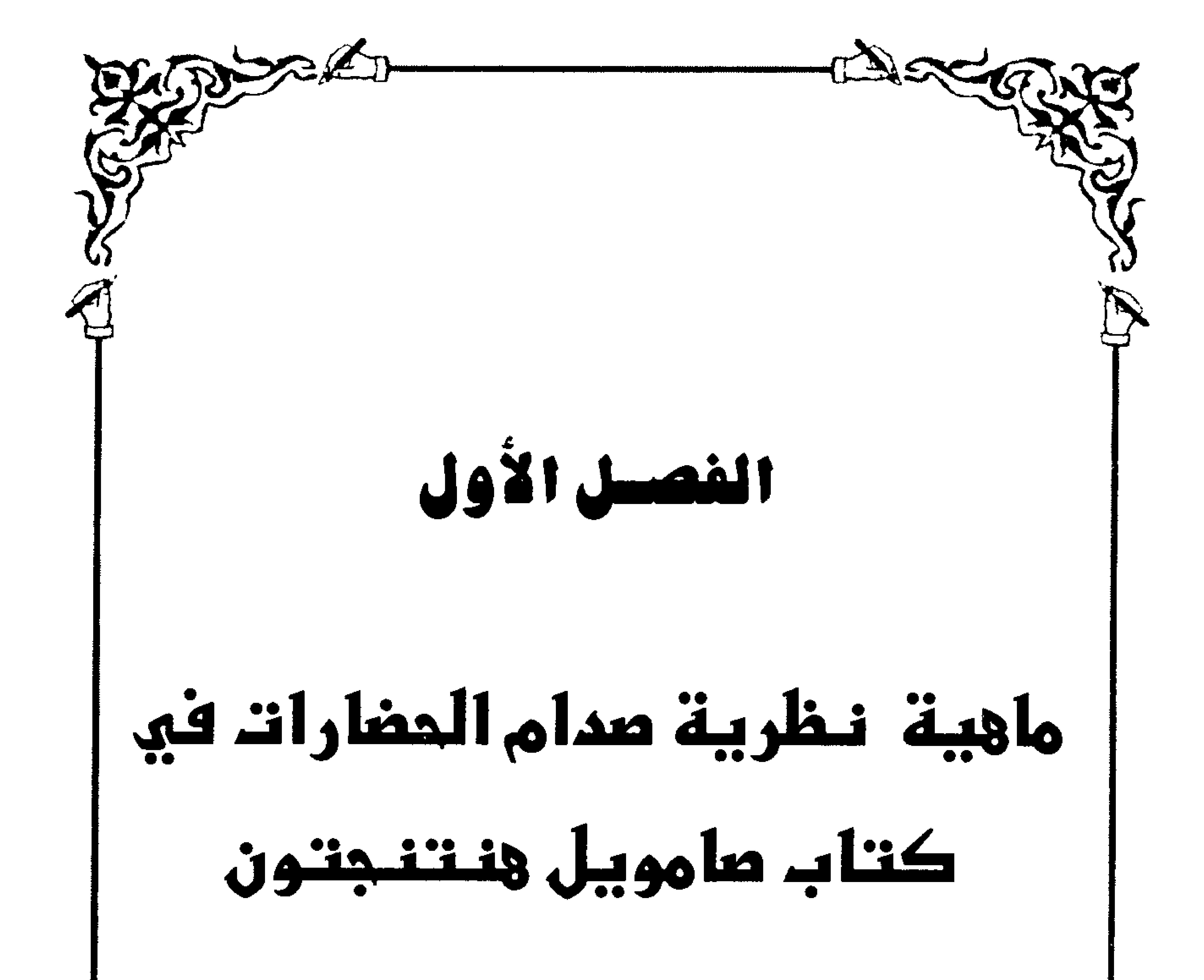
صدام الحضارات: محاولة للفهم

مقدمـــــة:

١٩٩٢ : الكاتب الأمريكـــــي **فرنســـيس فوكوياما** (Francis Fukuyama)يتنبَّأ بنهاية التاريخ في كتاب لقي صدى كبيرا في أمريكـــا وما وراء الأطلنطي. هذا الرَّجل العلمي المنتسب لجامعة هارفار يعتـــبر نهاية الشُّيوعية هي الانتصار النِّهائي للدّيموقراطية اللّيبيرالية. ولهذا الاعتبار فإنَّ لا شيء أصبح يقلق الهيمنة الغربية وأنَّ العالم ستنتهي أيَّامـه دون أن يقع شيء يمكن أن يُوصف بالتّاريخيِّ في العلاقات بين الأمم.

١٩٩٣: البروفيســـور صــــامويل هنتنجتـــون (Samuel Huntington)مدير في معهد الدِّراسات الاستراتيجية بهارفار، يَرّدُ علـــى مواطنه بدراسة مختلفة يتوقع فيها عكس ما ذهب إليه فوكوياما تمامـــا. هنتنجتون، الذي كان عضوا في مجلس الأمن القومي في إدارة كــــارتر والذي لا يزال يساهم دائما في نقاشات ضبـــط السّياســـة الخارجيـــة الأمريكية، بَلْوَرَ في صائفة ١٩٩٣ على صفحات مجلّة الشُّؤون الخارجيـــة الأمريكية فكرة كارثية انتشر صيتها في أنحاء المعمورة كلّها وبقيت تثـير جدلا كبيرا إلى هذه اللّحظة. قام هنتنجتون بالرَّدّ علـــى الانتقــادات والملاحظات والتساؤلات التي وُجّهت له بشأن دراسته بتأليف كتـــاب أطلق عليه نفس العنوان " صِدام الحضارات" أكَّد فيه نظرّيته ودعمـــها بتحاليل طويلة وأمثلة متعدِّدة أخرجها من سجِلاَّت التَّـــاريخ ووقـــائع الزَّمن الرَّاهن.

في موضوعنا هذا سنحاول فهم هذه النَّظرية من خلال ما كتبه هنتنجتون وتحديد جذورها التَّاريخية وأبعادها الفكرية وآثارها على الأمَّة الإسلامية وعلاقتها بالعدوان القائم اليوم على العراق وفلسطين، وهل تجسيد هذه النظرية قدر محتوم على البشرية وإذا ما حدث ذلك هل ستكون نتيجة الصدام الذي يتحدث عنه هنتنجتون هي نهاية التَّاريخ الذي قرره فوكوياما أي الغلبة الأبدية للهيمنة الغربية أم أن المستقبل يخفي شيئا آخر غير الذي تريده أمريكا.



الفصل الأول

ماهية نظرية صدام الحضارات في كتاب صامويل هنتنجتون



إن الفكرة المركزية لنظرية صدام الحضارات تتمثل في تنبيه الغرب وخاصة الولايات الأمريكية المتحدة إلى عدم الاغترار بالقوة التي تملكها وأن الحضارة الغربية وإن كانت تمتلك ما يؤهلها للاستمرار في السبق والهيمنة في القرن الواحد والعشرين فإن ثمة عوامل سلبية أخرى أصبحت تلازمها تشير إلى بداية الأفول وأن الحضارات الأخرى لا يمكن أن تندمج في الثقافة الغربية وان هذه الحضارات بدأت تسلك طريق النمو والقوة وعلى رأسها الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية وأصبح بإمكان هذه الحضارات أن تساهم في تعجيل نهاية العظمة الأمريكية الغربية ولكي يستمر الغرب في هيمنته عليه أن يعالج عددا من المشاكل الداخلية وأن يتبع استراتيجية خارجية محددة تجاه الحضارات الأخرى.

ولبلورة هذه الفكرة اعتمد صامويل هنتنجتون على دراسة مطولة تجاوزت أربعمائة صفحة قسمها إلى خمسة فصول واثني عشرة بابا. وسنحاول تقديم صورة عامّة عن دراسة هنتنجتون للذين لم يطلعوا عليها من خلال ترجمة الملخص الذي قدمه الكاتب نفسه في مؤلفه ثم نضع بين يدي القارئ ملخصا آخر أكثر شمولا من وجهة نظرنا بعد قراءتنا لمختلف فصول هذا الكتاب في النسخة التي صدرت باللغة الفرنسية عن دار إيديل جاكوب سنة ١٩٩٧م وسنركز في ملخصنا على ما يتعلق بالفكرة المركزية التي حددناها أعلاه وذلك لنحاول فهم جوهرها من خلال ما ذهب إليه المؤلف نفسه.

أولا: ملخص الكتاب بقلم هنتنجتون نفسه :

يقول الكاتب في تقديم ملخصه ما يلي[1]:

"ما هو الموضوع المركزي للكتاب ؟ حيث أن الثقافة والهويات الثقافية هي هويات حضارية فإنها تحدد الهياكل التي تحقق الانسجام والتماسك أو التفكك والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة. إن الفصول الخمسة التي يتشكل منها هذا الكتاب تبسط وتفصل هذه المسلمة:

الفصل الأول: لأول مرة في التاريخ تصبح السياسة الدولية متعددة الأقطاب ومتعددة الحضارات كما أن الحداثة تتميز عن التغريب ولا تشكل على الإطلاق حضارة عالمية وهي قبل ذلك لا تؤدي إلى تغريب المجتمعات غير الغربية.

الفصل الثاني: إن ميزان القوة بين الحضارات قد تغير والتأثير النسبي للغرب آل إلى الزوال. وفي نفس الوقت، فإن القدرات الاقتصادية والعسكرية والسياسية للحضارات الآسيوية آخذة في النمو، والإسلام من جهة أخرى يتفجر ديموغرافيا مما سيؤدي إلى ضرب استقرار البلدان

---

(١) انظر: كتاب صدام الحضارات لصمويل هنتنجتون مترجم إلى اللغة الفرنسية

le choc des civilisations, Samuel Huntington, editions odile Jacob p16-17.

الإسلامية والبلدان المجاورة لها. وأخيرا لقد أصبحت الحضـــارات غـــير الغربية تفرض وجود قيم ثقافاتها الخاصة بها.

الفصل الثالث: إن نظاما دوليا يقوم على أساس الحضارة قد بـــرز، ومجتمعات تجمعها سمات ثقافية واحدة أصبحت تتعاون فيمـــا بينـــها، ومحاولات جذب مجتمعات داخل حضارة لا تنتمي إليها تبوء بالفشـــل، وبلدان كثيرة تتجمع حول دول محورية تنتمي لحضارتها.

الفصل الرابع: أطماع الغرب في فرض عالميته تسوقه إلى الدخـــول أكثر فأكثر في صراعات مع الحضارات الأخرى وخصوصا مع الإســـلام والصين. وظهور حروب حدودية على المستوى المحلي، خصوصا بـــين المسلمين وغير المسلمين، تثير قيام تحالفات جديدة وتؤدي إلى تصعيـــد العنف مما يجعل الدول العظمى تحاول توقيف هذه الحروب.

الفصل الخامس: إن بقاء الغرب مرهون بتأكيد الأمريكيين لهويتـــهم الغربية، وعلى الغربيين أن يسلموا بأن حضارتهم فريدة ولكنها ليســـت عالمية، وأنه يجب أن يتحدوا لضمان حيوية جديـــدة لحضـــارتهم. إن تجنب حرب شاملة بين الحضارات ممكن إذا سلم الزعماء السياسيون في العالم كله بأن السياسة الدولية قد أصبحت متعددة الحضارات وتعـاونوا على المحافظة على هذا الوضع القائم.

ثانيا: ملخص كتاب صدام الحضارات من زاوية أخرى:

إن قراءة كتاب صدام الحضارات بخلفية ناقدة يجعلنا نستخرج منـــه أفكارا مبثوثة في ثنايا المؤلّف توحي بأن بين أيدينا مخططا كبيرا لحـــرب شاملة على الحضارات غير الغربية لخبير استراتيجي فذٍّ له قدرات عاليـــة واعتزاز كبير بحضارته.

وبالرغم من أن الكاتب يريد هذه الحرب أن تكون باردة يستعمل فيها الغرب المؤسسات الدولية والتحالفات الحضارية لإضعاف من يتصورهم خصوما حضاريين إلا أن تحقيق أهداف هذه الخطة لا يمكن أن يتم إلا عبر حروب حقيقية نشهد بعض فصولها اليوم. وقد لخصنا أهم أفكار هذا المخطط من خلال ستة محاور مع الإشارة إلى أن هذه المحاور لا تخضع لفصول وأبواب الكتاب وكل ما سنذكره فيها ثابت في نصوصه ومتناثر في مختلف صفحاته وتتمثل هذه المحاور في ما يلي:

أولا: تعريف الحضارة:

يعرف هنتنجتون الحضارة وفق الخصائص التالية:

تمثل الحضارة الكيان الثقافي الأكثر سعة[١]، وهي الأسلوب والشكل الأكثر رقيا للتجمعات الإنسانية والمستوى الأسمى للهوية الثقافية التي يحتاجها البشر لكي يتميزوا عن سائر الأنواع الأخرى. وتتشكل الحضارة من عناصر موضوعية كاللغة والعرق والتاريخ والدين والعادات وأنماط الحياة والمؤسسات، غير أن العنصر الأهم من هذه العناصر على الإطلاق هو الدين فالحضارات الأساسية تباينت عبر التاريخ من خلال الديانات الكبرى في العالم ، وعكس ذلك فإن الشعوب التي تنتمي لنفس الإثنية وتتكلم نفس اللغة يمكن أن تتصارع حينما تختلف دياناتها مثلما حدث في لبنان ويوغسلافيا والهند[٢].

---

(١) نفس المرجع ص٤٠.

(٢) نفس المرجع ص٣٩.

ثانيا: الحضارات الكبرى المعاصرة:

يقسم هنتنجتون الحضارات القائمة في عصرنا إلى ثمان حضارات ورغم أن الأسماء التي يطلقها على الحضارات في تصنيفه لا ترمز كلها إلى الدين غير أنه يؤكد أساسا على البعد الديني في تعريفه لكل هذه الحضارات وفق التعاريف الذي ذكرناها أعلاه وهي[1]:

١- **الحضارة الصينية:** وقد سماها هنتنجتون في بداية الأمر في مقاله الشهير الحضارة الكونفشيوسية باعتبار أن المعتقدات الكونفوشيوسية هي العامل الأساسي لهذه الحضارة وهي حضارة تتجاوز حدود القطر الصيني وتشمل الشعوب الصينية التي تعيش في جنوب شرق آسيا والثقافات المرتبطة بها في فييتنام وكوريا.

٢- **الحضارة اليابانية:** ويعتبرها حضارة متميزة عن الحضارة الصينية ومتفرعة عنها وربما يتعمد هنتنجتون عدم ربطها بالحضارة الصينية لخدمة هدف استراتيجي نتطرق إليه لاحقا.

٣- **الحضارة الهندية:** وتعتبر الهندوسية هي المكون الأساسي لها رغم وجود طائفة إسلامية كبيرة وأقليات أخرى أقل أهمية.

٤- **الحضارة الإسلامية:** وتضم حضارات فرعية مرتبطة كلها بالإسلام عربية وتركية وفارسية وماليزية.

٥- **الحضارة الغربية:** وتضم أوربا وأمريكا والدول التي يسكنها أوربيون كيوزيلندا الجديدة وأستراليا ويركز على الخصوصية

---

(١) نفس المرجع ص٤٢-٤٥.

الكاثوليكية والبروتستنتية بشكل أخص في هذه الحضارة ونعود لهذا الأمر لاحقا.

٦- **الحضارة الأمريكية اللاتينية:** ويعتبرها تتميز عن الحضارة الغربية كونها لم تتأثر بحركة الإصلاح ولم تمتزج فيها الثقافة الكاثوليكية بالثقافة البروتستنتية ولم تتأثر بحركة الإصلاح التي واجهت الكنيسة الكاثوليكية في أوربا وهي تضم كذلك ثقافات الأهالي الأصليين الذين لا يوجدون في أوربا وأبيدوا نهائيا في أمريكا الشمالية.

٧- **الحضارة الأرثوذكسية:** وتضم روسيا ومختلف الدول السلافية ويعتبر المذهب المسيحي الأرثوذكسي المكون الجوهري لهذه الحضارة.

٨- **الحضارة الإفريقية:** ولا يظهر بأن الكاتب كان متحمسا جدا لذكر هذه الحضارة في التصنيف حيث وجد صعوبات في تحديد معالمها فاضطر إلى إلغاء الشمال الإفريقي الإسلامي منها واعتبر بأن الجزء الإفريقي الذي يقع جنوب الصحراء والذي تمتزج فيه الثقافات القبلية والتأثيرات المسيحية يمكن أن يكون حضارة يكون محورها جنوب إفريقيا.

ثالثا: الخصوصيات التي تميز الحضارة الغربية عن سائر الحضارات:

بعد أن يفند هنتنجتون فكرة الحضارة العالمية الغربية في عرض مطول يركز فيه على أن استعمال الأدوات الغربية من لباس ومأكل ولغة لا يعني بأي حال من الأحوال اندماج الحضارات الأخرى في الحضارة

الغربية[1] ينصرف إلى تحديد ما يشكل ملامح الحضارة الغربية ويجعلها تتفوق على غيرها فيجملها فيما يلي[2]:

- **الإرث الكلاسيكي**: الروماني الإغريقي المسيحي ثم الإسلامي والأرثذكسي بدرجة أقل حسب قوله.
- **الكاثوليكية والبروتستنتية**: حيث يؤكد بأن المسيحية الكاثوليكية ثم الكاثوليكية والبروتستنتية هي الخصوصية الأكثر أهمية من الناحية التاريخية في تشكيل الحضارة الغربية ويركز في مواقع عدة على تأثير البروتستنتية في تشكيل العقلية الحرة الإبداعية علما بأن البروتستنتية هي التي رافقت حركة الإصلاح والتنوير في مواجهة الكنيسة الكاثوليكية منذ القرون الوسطى.
- **اللغات**: حيث يبين بأن اللغات تعتبر عاملا مميزا ثانويا بالنسبة للديانة في الحضارة الغربية رغم الميراث اللاتيني اللغوي المشترك الذي انقرض بعد أن طورت منه الأمم الغربية لغات عديدة خلافا لكثير من الحضارات الأخرى المرتبطة بلغة واحدة.
- **فصل السلطات بين ما هو ديني وزمني**: حيث يؤكد بأن الحضارة الغربية بنيت على تمييز السياسة عن الدين وفق مقولة ما لله لله وما لقيصر لقيصر خلافا للحضارة الإسلامية التي يعتبر فيها الله هو الحاكم (هو يقول الله هو قيصر تعالى الله عن

---

(١) نفس المرجع ص٥٩.

(٢) نفس المرجع ص٧٠-٧٤.

ذلك علوا كبيرا) وخلافا كذلك للحضارة الصينية التي يعتبر فيها قيصر بمثابة الإله والحضارة الأرثوذكسية التي يكون فيها الله في خدمة قيصر.

- **دولة القانون**: ويُرجع بداية تجسيد مفهوم دولة القانون في الغرب إلى الحضارة الرومانية ثم ما وقع من تطورات في أوربا عبر أزمنة عديدة ويعتبر مفهوم دولة القانون هو الذي أرسى أسس ظاهرة المؤسسات في الغرب (المؤسساتية) وأدى إلى حماية حقوق الإنسان ومنع استغلال الحاكم للسلطة وهذا خلافا حسب رأيه للحضارات الأخرى التي لا تأثير كبير فيها لمفهوم دولة القانون.

- **التعددية الاجتماعية**: حيث يعتبر بأن الغرب تميز منذ القدم بتصاعد واستمرار المجموعات المستقلة التي لا تقوم على أساس القرابة والمصاهرة وهذا الذي أنتج تعدد المنظمات المجتمعية ويضاف إلى هذا كذلك التعدد الطبقي من مجموعات أرستقراطية قوية ومستقلة وطبقة الفلاحين والتجار والحرفيين مما أدى إلى منع تكريس الهيمنة السلطوية المطلقة في جل الدول الغربية خلافا للحضارات الأخرى التي يشح فيها المجتمع المدني وتضعف فيها الأرستقراطية وتتقوى فيها الإمبراطوريات البيروقراطية وهذا الذي تميزت به حسب قوله روسيا والصين والإمبراطورية العثمانية ومجتمعات أخرى غير غربية.

- **الهيئات الوسيطة**: التي يعتبرها نتاج التعددية الاجتماعية التي أنشأت برلمانات ومؤسسات أخرى تكلفت بتمثيل مصالح

مختلف الفئات وتطورت مع الزمن لتعطي المؤسسات العصرية للديموقراطية إضافة إلى أشكال السلطات المحلية التي تشكلت مبكرا في إيطاليا وعمت سائر الشمال مما أدى إلى تقاسم السلطة, ويعتبر بأن أي حضارة أخرى لم تستفد من هذا الإرث القديم من الهيئات الوسيطة التي يصل عمرها إلى قرون من الزمن.

- **الفردانية**: وهي خاصية غربية مطلقة نتجت عن كل الخصوصيات التي ذكرت وقد أنشأت هذه الخاصية ضميرا فردانيا وتقاليد تنزع إلى حماية الحقوق والحريات وتعتبر الفردانية بالنسبة للحضارة الغربية والحضارات الأخرى (التي تتميز بالنزعة الجماعية) هي الظاهرة المميزة للغرب.

رابعا: العلاقة المستقبلية للحضارة الغربية مع الحضارات الأخرى:

يعتبر هنتنجتون بأن علاقة الحضارات الأخرى بالغرب وما أنتجته حضارتهُ من عصرنة وثقافة تغريبية تطورت وفق مرحلتين[1]. ففي المرحلة الأولى تصرف قادة الفكر والسياسة في المجتمعات غير الغربية تجاه التأثير الغربي بشكل من الأشكال الثلاثة التالية: رفض العصرنة والتغريب ، قبول الإثنين معا، رفض التغريب وقبول العصرنة. وفي الفترة المعاصرة هيمن الانبعاث الثقافي والدّيني (حتى في الدول التي هيمن عليها المناهج التغريبية كالمنهج الكمالي في تركيا) وأصبح الجميع لا يهمّه مما تملكه الحضارة الغربية إلا مظاهرُ العصرنة كالتكنولوجية والقوّة

(١) نفس المرجع ص٧٥-٨٢.

العسكرية والاقتصادية والتنظيم السياسي مع تمسك غير مسبوق بالخصوصيات الثقافية .

يعتبر هنتنجتون بأنّ رجوع الناس للأصول وعودة التدين بشكل عام ظاهرة عالمية تتميز بها كل الحضارات غير أنّه يؤكد بأن هذه الظاهرة تبرز بشكل خاص في الحضارتين الآسيوية والإسلامية اللتين أصبحت ثقافتهما تفرضان وجودهما أكثر فأكثر، واللتين أصبحتا تتحديان الغرب بشكل سافر. ويعتبر بأن هاتين الحضارتين كانتا الأكثر حيوية خلال الربع الأخير من القرن العشرين[1]. وبشكل عام حينما يتكلم عن مستقبل العلاقات بين مختلف الحضارات التي ذكرها من جهة والغرب من جهة أخرى فإنه يصنفها إلى ثلاثة مستويات[2]:

- علاقات متوترة وفي كثير من الأحيان علاقات صراع وتصادم بالنسبة للصين والإسلام.
- علاقات أقل توترا وحالات صدام نادرة مع الحضارة الإفريقية وبشكل أخف مع الحضارة الأمريكية اللاتينية باعتبار ضعف الحضارتين وارتباط مصيرهما بالغرب.
- علاقات تتوسط المستويين السابقين ويتعلق الأمر بالعلاقة مع الحضارة الأرثوذكسية الروسية والحضارة اليابانية والحضارة الهندية حيث يرى بأن هذه العلاقة ستمتزج فيها علاقات التعاون بحالات الصراع حسب اصطفاف الدول المحورية في

---

(١) نفس المرجع ص١٠٩.

(٢) نفس المرجع ص٢٠١.

هذه الحضارات مع الحضارتين المنافستين للغرب وهما الصين والإسلام أو وقوفها إلى جانب الغرب، فهي حضارات تتردد بين الغرب من جهة والحضارة الإسلامية و الحضارة الصينية من جهة أخرى.

ويعتبر هنتنجتون بأن الأسباب التي تجعل الحضارتين الإسلامية والصينية تتحديان الحضارة الغربية أسباب مختلفة ولكنها مترابطة:

-**أما الحضارة الصينية**[1]: فإن ثقتها بنفسها تعود إلى نموها الاقتصادي الذي استطاع فعلا أن يغير ميزان القوة بين آسيا والغرب وخاصة بين الصين والولايات الأمريكية المتحدة فالثراء والقوة الاقتصادية يعتبرها الصينيون دليلا على الفضيلة والتفوّق الأدبي والثقافي. وهذا الذي شجّعهم على التمسك بالخصائص المميزة لثقافتهم وإعلان تفوق قيمهم ونمط حياتهم مقارنة بالقيم الغربية والمجتمعات الأخرى. فالمجتمعات الصينية أصبحت تتحرر أكثر فأكثر من الاشتراطات الأمريكية و هي الآن أقدر على مقاومة الولايات الأمريكية المتحدة والدول الغربية الأخرى.

-**وأما المسلمون**[2]: فإن تحدّيهم للحضارة الغربية يعود بشكل كبير إلى نموّهم الديموغرافي وحيويتهم و انبعاثهم الثقافي والاجتماعي والسياسي المتواصل ورفض القيم والمؤسسات

(١) نفس المرجع ص١١١.

(٢) نفس المرجع ص١١٧.

الغربية وتوجه غالبيتهم نحو الإسلام كمصدر للهوية والضمير والحس والتوازن والشرعية والتنمية والقوة والأمل ضمن شعار مركزي " الإسلام هو الحل ". هذا الانبعاث الإسلامي ، من خلال سعته ومداه وعمقه، هو المرحلة الأخيرة لتموقع الحضارة الإسلامية بالنسبة للغرب. فهو جهد داخلي كبير لإيجاد " الحل " في الإسلام وليس في الأيديولوجيات الغربية. ويُترجَم هذا الانبعاثُ في الواقع من خلال قبول العصرنة ورفضِ الثقافة الغربية والانخراطِ من جديد في الإسلام كدليل ومنهج حياة في العالم العصري.

ولتأكيد رأيه هذا يتوسّعُ هنتنجتون كثيرا في دراسة التطورات الاقتصادية في الصين والمقدرات الجبارة التي تتمتع بها والآفاقِ الواعدة التي ستجعلها قوة عظمى ستؤثر كثيرا في العلاقات الدولية وتسبب مشاكل جمّةً للولايات الأمريكية المتحدة، ولكنه يتوسع أكثر في إبراز المخاطر التي يمثلها الإسلام من خلال النمو الديموغرافي الذي يتمتع به والثروات الطبيعية التي ينعم بها وخصوصا الحركية الاجتماعية التي تُحدثها الحركة الإسلامية في شتّى المجالات الثقافية والاجتماعية والسياسية والتي ستجعل في الأخير من سيكون بيدهم الحكم في العالم الإسلامي ملتزمين بالهوية الإسلامية[1] حتى وإن لم يكونوا من الإسلاميين المتشدّدين وهذا خلافا للفئات العلمانية التي حكمت العالم الإسلاميِّ بعد فترة الاستعمار. وللحديث عن المخاطر التي يمثلها الإسلام للغرب يخصص هنتنجتون فصلين كاملين وهذا علاوة على ما

---

(١) نفس المرجع ص ١٣٠.

نجده متناثرا في جُلّ أجزاء الكتاب. وبالرغم من أنه لا يعتبر الحضارة الإسلامية اليوم قوة عسكرية واقتصادية ويرى أنّها لا تتوفر على دولة محورية تتجمع حولها قوى العالم الإسلامي المتشتتة إلاّ أنّه يعتبر هذه الحضارة أخطر من الحضارة الصينية نفسها ويبرهن على ذلك بالرجوع إلى أحداث التاريخ ليؤكد بأن الغرب كان دائما تحت تهديد الإسلام وأن الحضارةُ الإسلامية هي الحضارة الوحيدة التي جعلت الغرب مهددا في وجوده مرتين[١] عبر التاريخ وهي تهدده اليوم من داخله أصلا من خلال تزايد أعداد المهاجرين والنمو الديموغرافي الكبير الذي تعرفه الجالية الإسلامية في المجتمعات الغربية. وأخطر ما يصف به هنتنجتون الحضارة الإسلامية أنها تمثل الحدود الدموية في العالم[٢]، ويرسم لذلك بيانا يوضح فيه بأن الحضارة الإسلامية هي الحضارة الوحيدة التي لها علاقات صراع مع كل الحضارات ويستثني من ذلك العلاقة مع الصين[٣]. ويصرح بشكل واضح بأن الصدامات الخطيرة المرتقب وقوعها في المستقبل سيكون سببها تشابك الكبرياء الغربي واللاتسامح الإسلامي وإرادة فرض الذات الصينية.

وفي هذا الإطار يتحدث الكاتب مطوّلاً عن التحالف المحتمل الذي بدأت معالمه تظهر حسب رأيه بين الحضارتين الصينية والإسلامية في مواجهة العدو المشترك الغربي. ويتحدث في هذا الإطار عن الرابطة

(١) نفس المرجع ص٢٣٠.

(٢) نفس المرجع ص٢٨٢.

(٣)نفس المرجع ص٢٧٠.

العسكرية الإسلامية ــ الكنفوشيوسية[١] بين الصين وكوريا من جهة وبعض الدول الكبرى في الحضارة الإسلامية كإيران وباكستان والعراق والجزائر من جهة أخرى. ويحذر من إمكانية نقل تكنولوجيا الصواريخ وأسلحة الدمار الشامل إلى العالم الإسلامي ويؤكد على هذه المخاطر من خلال بيانات التعاون والعلاقات القائمة بين دول هاتين الحضارتين.

خامسا: ما يجب على الغرب أن يقوم به أمام تحدي الإسلام والصين:

فبعد أن يحذر هنتنجتون بشكل ملح من مخاطر الحضارة الصينية وخصوصا الحضارة الإسلامية، يتوجه إلى تنبيه الغرب إلى المخاطر التي تهدده من الداخل بسبب الأفول الأخلاقي والانتحار الثقافي والتفكك السياسي الذي يعتبره أخطر من ضعف النمو الديموغرافي والركود الاقتصادي الذي تعرفه المجتمعات الغربية في هذه المرحلة، ويعدد مظاهر هذا الأفول الأدبي كما يلي[٢]:

- تنامي التصرفات المصادمة للمجتمع كالجريمة والمخدرات والعنف بشكل عام.
- انهيار الأسرة الذي يترجمه ارتفاع معدلات الطلاق والولادات غير الشرعية وحمل المراهقات وكثرة الأسر بأم دون أب أو العكس.

---

(١) تحدث هنتنجتون كثيرا عن الموضوع انظر: مثلا نفس المرجع ص٢٦٣.

(٢) نفس المرجع ص٣٣٦.

-هبوط " الرصيد المجتمعي " على الأقل في الولايات الأمريكية المتحدة ويعني بذلك المشاركة الضعيفة أكثر فأكثر للجمعيات التطوعية وبالتالي فتور علاقات الثقة التي تربطها هذه المشاركة بين أفراد المجتمع.

-الضعف العام " للآداب " والأولوية الممنوحة للمجاملات ومسايرة الخطأ.

-زوال الانجذاب للمعرفة والنشاط الفكري الذي يعبر عنه ضعف المستوى الدراسي في أمريكا.

وبعد هذا العرض يجزم هنتنجتون بأن ثراء ورفاه الغرب وتأثيره على المجتمعات الأخرى مرتبط أساسا بقدرته على مواجهة هذه المشاكل التي تنمي مزاعم الأفضلية الأدبية التي يظهرها المسلمون والشعوب الآسيوية، ثمّ يقدم وصفة شاملة لمواجهة المخاطر المستقبلية يبدأها بضرورة تأكيد الهوية الغربية للولايات الأمريكية المتحدة والترابط الثقافي مع أوربا وعدم الانصياع للدعوات التي يطلقها الكثيرون في أمريكا من أجل اعتبار هذه الدولة متعددة الأثنيات والثقافات والأعراق خلافا لما هو موجود في الدول الأوربية.

وأهم ما ينصح به هنتنجتون الغربيين لمواصلة هيمنتهم على العالم والتصدي للانبعاث الإسلامي و إرادة فرض الذات الصينية ما يلي[١]:

-حسن تسيير الاندماج السياسي والاقتصادي والعسكري بين أمريكا وأوربا وتنسيق السياسات بين هذين الجزأين المكونين

---

(١) نفس المرجع ص٣٤٥.

للحضارة الغربية لكـــي لا تســتغل الحضـــاراتُ الأخـــرى خلافاتهما.

-إدماج الدول الغربية في أوربا الوسطى ضمن الاتحـــاد الأوربي وحلف شمال الأطلسي ويخص بالذّكر دول قمّـــة فيزغـــارد (المجر، بولونيا، جمهورية التشيك وسـلوفاكيا) وجمـــهوريات البلطيق وسلوفينيا وكرواتيا.

-تشجيع حركة تغريب أمريكـــا اللاتينيـــة، ومحاولـــة -قـــدر الإمكان- إلحاق دولها بالحضارة الغربية.

-كبح تنمية القوة العسكرية التقليدية وغير التقليديـــة للـــدول الإسلامية وبلدان الثقافة الصينية.

-منع اليابان من الابتعاد عن الغرب والاقتراب من الصين.

-اعتبار روسيا دولة محورية في العالم الأرثوذكسي وقوة جهويـــة أساسية لها مصالح شرعية في تحقيق الأمن في حدودها الجنوبيـــة "الإسلامية".

-ضمان استمرار الهيمنة التكنولوجية والعسكرية الغربية علـــى الحضارات الأخرى.

-وأخيرا وخاصة، اعتبار كل تدخل للغرب في شؤون الحضارات ربما يكون أهم سبب لعدم الاستقرار والمواجهة الشـــاملة في عالم ينطوي على حضارات متعددة.

ولكي يؤكد الكاتب تخوفاته ويُبرز الآثار المحتملة لانـــدلاع حـــرب حضارية شاملة يتخيل مواجهة عالمية بين الـــدول المحوريـــة لمختلـــف

الحضارات[١] تبدأ بمواجهة جزئية بين أمريكا والصين وتنتهي بحرب عالمية بين أمريكا وأوربا وروسيا والهند من جهة، والصين واليابان وجزء كبير من العالم الإسلامي من جهة أخرى يستعمل فيها الطرفان السلاح النووي وتؤدي إلى أفول الدول العظمى وتحول القوة إلى دول الجنوب.

سادسا: الخلاصة:

نستخلص من هذا الملخص بأن هنتنجتون يحمل هما كبيرا يريد أن يشرك فيه غيره ممن يملك القرار في الغرب-أو ربما كُلِفَ بهذا-فهو يشعر أن معالم الضعف قد بدأت تدب في الحضارة التي ينتمي إليها، وفي ذات الوقت حضارات أخرى بدأت تفرض وجودها وأخذت تزاحم الغرب على زعامة العالم أو على الأقل أصبحت لا تسلم له بالسيادة. وهو في كتابه يتصور بأن الحضارة الغربية يمكن أن تتمرد على حتمية تداول الحضارات أو تستعصي عليها فيطول مداها إلى القرن الواحد والعشرين وما بعده بما تملكه من مقومات تتميز بها عن غيرها، ثم إنه يتصور بأن أسباب الضعف يمكن معالجتها وأما المخاطر الخارجية فيرسم لها مخططا شاملا لا يمكن تطبيقه إلا من خلال خلق توترات وحروب دائمة في كل أنحاء المعمورة. لا ينظر هنتنجتون إلى الحضارات الأخرى إلا من زاوية النظرة المادية وما تشكله بزعمه من مخاطر استراتيجية اقتصادية وديموغرافية وامتلاك لأسلحة الدمار الشامل دون اعتبار لما تملكه هذه الحضارات من قيم روحية وأدبية وميراث إنساني وخصوصيات ثقافية

---

(١) نفس المرجع ص٣٤٦.

جعلتها تحتل مواقع الصدارة في فترات سابقة من الزمن الغابر وتؤهلها للرقي مرة أخرى، فهو يحصر عوامل الرقي الحضاري في الغرب وحده، ولا يقر بأن للحضارات الأخرى ما يشبه أو يفوق ما وصف به الحضارة الغربية، مما سجله التاريخ لغيرها من الحضارات الأخرى ولا مجال لإنكاره ومواراته ، خصوصا بالنسبة للحضارة الإسلامية التي يعرفها الغرب أكثر من معرفته لغيرها.

لقد حدد الكاتبُ عدو الحضارة التي ينتمي إليها بشكل واضح فهو حينما يتحدثُ عن إفريقيا يعتبرها عديمة الخطر لضعفها وتبعيتها، وحينما يتطرق إلى الحديث عن أمريكا اللاتينية يرى بأن الحل في مواصلة حركة التغريب فيها، وحينما يتحدث عن اليابان يدعو إلى إلحاقه بالغرب، وحينما يتحدث عن روسيا يقترح توظيفها لمواجهة الجمهوريات الإسلامية في وسط آسيّا.. ويتحدث كثيرا عن الصين ولكن لا يقترح بشأنه شيئا سوى إبعادِ اليابان عنه ومنع الشعوب الصينية الأخرى خارج القطر الصيني من امتلاك أسباب القوة العسكرية. ولكن حينما يتطرق إلى حالة الإسلام يطنب في التخويف منه ويوصي بأن لا تكون له أنياب أبدا وأن لا تقوم فيه دولة محورية منه تتجمع حولها مجتمعات الأمة الإسلامية.

إننا حين نشاهد ما يحدث اليوم في العلاقات الدولية نرى المخطط الهنتنجتوني مطبقا بشكل مخيف على أرض الواقع خاصة ما يتعلق بالعالم الإسلامي وهذا الذي سنتطرق إليه بالدراسة في الفقرات الأخرى. وأما بخصوص الحضارة الصينية فإن الحرب ضدها شرسة حقا ولكنها باردة وهي اليوم على جبهتين، الجبهة الكورية الشمالية التي أحجمت

الولايات الأمريكية عن التدخل المباشر فيها رغم إعلان دولة كوريا الشمالية امتلاكها للسلاح النووي وهذا تطبيقا لوصية هنتنجتون. والجبهة الصينية نفسها والمعركة فيها معركة اقتصادية. وربما يكون مرض الالتهاب الرئوي اللانمطي هجمة بيولوجية في هذا السياق تهدف إلى الإلهاء والابتزاز وتقليص الحركة الاقتصادية الخارجية في اتجاه الصين وفق ما يقوله بعض المهتمين بالشأن الدولي الذين يشبهون هذا الأمر بالحرب البيولوجية التي خاضتها أمريكا ضد المحاصيل الزراعية للاتحاد السوفيتي سابقا... وفي كلّ الأحوال فإنّ الأيام المقبلة ستجعل العالَم يفهم أكثر.





الفصل الثاني

ما الذي يفسر هيمنة الذهنية الصِّدامية عند الغرب؟



لا شك أن كثيرا من المثقفين والمفكرين والإعلاميين والسياسيين وأصناف أخرى من صناع الرأي في المجتمعات الغربية تقف في الاتجاه المعاكس لهذا التوجه. فالملاحظات الأكثر قدرة على الإقناع بخطورة نظرية "صدام الحضارات" جاءتنا من هؤلاء. فلا زلت أذكر مثلا في هذا الصدد مداخلة صفق لها بحرارة البرلمانيون المشاركون في مؤتمر من مؤتمرات الاتحاد البرلماني الدولي انعقد بمراكش في مارس سنة ٢٠٠٢ لنائب بريطاني ندد بقوة بالمآسي التي تتسبب فيها الإدارة الأمريكية في كل أنحاء العالم خصوصا في العراق وفلسطين بالتواطؤ مع حكومة بلده. غير أن السياسة الخارجية المهيمنة هي هنتنية بكل تأكيد. فالمكونات الأصلية لنمط التفكير في المؤسسات الغربية لا يمكن أن تنتج إلا مثل هذا. فما هي هذه المكونات:

أولا أصلية منطق الحرب والصدام في السياسة الخارجية الغربية:

إن منطق الصراع والحرب كان عبر كل الأزمنة هو المنطق السائد في الفكر الغربي. فسادة الفكر في علم العلاقات الدولية الذين تنفذ توجيهاتهم على أرض الواقع في المؤسسات الغربية اليوم هم ورثة اتجاهات فكرية سادت عبر القرون رسمت طريق الحرب والمؤامرة للأمراء والملوك. والعقيدة البراجماتية التي لا يهمها في "تفسير مفهوم الحقيقة إلا ما تعلق بسياسة الأمر الواقع" والتي تتميز بها السياسة الأمريكية اليوم ما هي إلا تكييف عصري لمفهوم الغاية تبرر الوسيلة التي أوصى بها أصحاب مصنفات " فن الحرب " في زمن غابر كميكيافيل وغيره.

يقول أفلاطون (*Platon*) في فترة مبكرة من مراحل تشكيل الفكر الغربي: " إن الحرب هي الحالة الطبيعة في العلاقات بين مجموعة سياسية

وأخرى "[١] . وعلى نفس المنوال يتابع ماكيافيل (Nicholas Machiavel) خط السير فيقول: "إن الحرب هي الفن الوحيد الذي يحتاجه الأمراء"[٢]. ومن جهته فولتير (Voltaire) يقول: "إن السلام مفهوم طوبوي "[٣] . وفي القرن العشرين آرون ((Aron يشرح فيقول: "إن الحرب هي عمل عنيف يسمح لنا بفرض إرادتنا على الخصم" ويقول: " لقد بحثت في ما يشكل خصوصية العلاقات الدولية ويبدو لي أنني لمست ذلك في شرعية استعمال القوة "[٤] وهانس مورغنتو(Hans Morganthau) الذي يمثل رمزا بارزا للبراغماتية الأمريكية في مجال العلاقات الخارجية يقول بدون مواربة:" إن السياسة الخارجية ليست إلا صراعا من أجل امتلاك القوة "[٥]. واليوم نقرأ في وثيقة رسمية للبنتاجون الأمريكية تحمل عنوان " مخطط البرنامج الدفاعي(Policy Guidance) صيغ سنة ١٩٩٢ــ١٩٩٣ ما يلي: " لا بد من منع كل قوة معادية من التحكم في منطقة تؤهلها مواردها للارتقاء إلى صف القوى العظمى " و " إفشال محاولة أي دولة مصنعة متقدمة من منازعة زعامتنا الدولية وقلب الوضع السياسي والاقتصادي القائم " وتعجب

(١) أحمد سويلم العمري، أسس العلاقات السياسية الدولية، القاهرة، المكتبة الإنجليزية ـ المصرية، ١٩٥٩، ص٢١.

(٢) Nicola Machievel, le Prince, Livre de poche 1972.

(٣) العمري، ص١١٧.

(٤) محمد طه بدوي، مدخل لعلم العلاقات الدولية، بيروت، دار النشر المصرية للطباعة والتوزيع، ١٩٧١، ص ٢٦ــ٢٧.

(٥)Hans morganthau, politics among nations, New york 1963 ,p.p: (4)

كثير من المفكرين[1] من عدم ابتهاج أصحاب الأمر في الإدارة الأمريكية من انتهاء الحرب الباردة فراحوا يبحثون عن عدو جديد يواصلون من خلاله طريق الصدام الذي لا يرون استقرار أمرهم إلا به ولم يصبح منظرو السياسة الأمريكية اليوم أمثال ريتشار بيرل (*Richard Perle*) وبول ولفوفيتس (*Paul Wolfowitz*) يخفون نزعتهم الصدامية على صفحات الجرائد والفضائيات. فقد قال أحدهم بكل وضوح وهو وليم كريستول (*William Kristo*) مؤسس "مشروع من أجل قرن أمريكي جديد " (*Project for a New Americain Century*): "إنها إشارة جيدة حينما يكون الشعب الأمريكي مستعدا للحرب" !

ثانيا أثقال التاريخ:

إن تاريخ الحروب الصليبية والصراعات الكثيرة التي تقابلَ فيها المسلمون والمسيحيون منذ معركة اليرموك إلى أن قرعت طلائع الجنود العثمانيين أبواب فيينا، إضافة إلى عنف الصدام في فترة الاستعمار أثرت تأثيرا كبيرا في تشكيل معالم النظرة الغربية للإسلام: إنه إسلام محارب يمنح المؤمنون به أرواحَهم بسخاءٍ لنصرته من أجل جنة يؤمنون بها أكثر من أي شيء آخر. وصحوةً جديدة لهذا الإسلام لا يمكن إلا أن تكون كارثية بالنسبة للغرب. فإبقاء هذا الدين في أدنى مستوياته

---

(1) Grant Havers , Mark Wexler, Is us neo_ conservatism Dead ?, The - 1 Quarterly Journal of Ideology, vol. 24, n 3-4 , Louisiana State University, 2001 .

الحضارية يعتبر بالنسبة للضمير الغربي بمثابة الواجب الـــذي لا يمكـــن التخلي عنه؟ وبالتالي إلباسه بلباس منفر يكون بلا تردد أمرا شـــرعيا؟ صمويل هنتنجتون يخدم إذن قضية رسم التاريخ معالمها بخيوط غـائرة في القدم.

ثالثا: المصالح، خصوصا المصالح:

د. بيكو يؤكد ذلك بجلاء ، بالنسبة لهذه الشخصية الأممية المكلفـــة بحوار الحضارات فإن الدافع الحقيقي للحروب إنما هو: مصالح الـــدول والقوى العظمى وطموحات الزعماء وليس الصراع بين الحضارات.

وفي تعليقه عن فكرة صدام الحضارات يشرح الجابري قضيـــة دور المصالح من وجهة نظره فيقول: يمكن القول إن هناك ثابتـــا واحـــدا أساسيا في موقف الغرب، والباقي متغيرات. والموقف من العـــرب أو من الإسلام أو من الصين أو من اليابان أو من أية دولة أخرى في العـــالم يتغير دائما، وقد يقفز من النقيض إلى النقيض إذا اقتضى ذلك منطـــق "الثابت". وليس "الثابت" في تحركات الغرب شيئا آخر غير المصـــالح، فعندما تمس مصالح الغرب أو يكون هناك ما يتهددها يتغير الموقـــف. وفي الختام يقول: الغرب مصالح، ولا شيء غير المصالح، وكل حوار معه أو تفكير ضده لا ينطلق من المعادلة التالية(الغرب = مصالح) إنمـــا هـــو انزلاق وسقوط في شباك الخطاب المغالطي والتمويهي السائد في الغرب، والهادف إلى صرف الأنظار عن "المصالح" وتوجيهها إلى الانشغال بمـــا يخفيها، ويقوم مقامها في تعبئة الرأي العام مثل "الحضارة" و"الثقافـــة" و"الدين" و"الأصولية"[1].

---

(١) الجابري، قضايا الفكر المعاصر، ص ١٢٧.

إن رد هنتنجتون بنوع من السخرية على مواطنه فرنسيس فوكوياما، والأهمية التي لقيتها دراسته على مستوى دوائر اتخاذ القرار في الغرب، تظهر بأن الأهداف المشبوهة غير الحضارية التي تخطط لها المؤسسات الغربية بحاجة إلى صدام بين الحضارات ! وأن نظرية نهاية التاريخ تمثل خطرا كبيرا على المصالح الأمريكية. وتؤدي بشكل مباشر إلى عدم اقتناع المواطنين الأمريكيين بحجج انتشار الجيوش الأمريكية في مختلف أنحاء العالم وإلى عدم الاستعداد لقبول ميزانيات كبيرة بخصوص التسلح ومجهود الحرب.

حينما يصبح العالم كله يسير وفق النغمة الليبيرالية الأمريكية ـــ حسب فوكوياما ـــ لا حاجة عندئذ للتدخل في شؤون الآخرين ولا بد من الاهتمام بالقضايا الداخلية مما قد يؤدي إلى بداية ظهور توترات محلية. ولتجنب هذا لا بد من تدخل خبراء أمثال هنتتن يعطون صبغة علمية لمخططات حربية مرتبة مسبقا. ولكي يؤدي دوره بشكل جيد لجأ هنتنجتون إلى الاستعمال المغرض لمعطيات التاريخ والجيوستراتيجية بغرض ترسيخ الخوف من الإسلام لدى الفئات الأقل دراية بالشؤون الدولية التي تمثل الأغلبية في المجتمع الأمريكي.



الفصل الثالث

صدام الحضارات مصطلح جديد لاستراتيجية دولية قديمة



إن الإشكالية التي يطرحها موضوع " صدام الحضارات " ليست جديدة. فهي مسألة تندرج في حقيقة الأمر ضمن مرحلة معينة في مسار استراتيجية موغلة في القدم. ويمكن تحديد تطور هذه الاستراتيجية في تاريخ علاقة الإسلام بالغرب وفق محورين أساسين، الأول فكري والثاني تطبيقي. وهذان المحوران يلتقيان عند وضعية جديدة جد خطيرة، هي وضعية ما بعد ١١ سبتمبر. المحور الفكري تطور وفق أربعة مراحل: مرحلة التحريف، مرحلة التخويف، مرحلة التعميم، مرحلة الشرعية. وأما المحور التطبيقي فقد عرف كذلك أربعة مراحل تاريخية هي: مرحلة صراعات الوجود، فترة الاستعمار، تطورات ما بعد الاستعمار، ما بعد أحداث سبتمبر

أولا: المحور الفكري:

١ــ مرحلة التحريف (la phase de denaturation):

وتتعلق هذه المرحلة بالمجهودات الكبيرة التي بُذلت منذ ظهور الحضارة الإسلامية لتشويه وتحريف النصوص الإسلامية والقيام بتفسيرات مغرضة للمصادر والوقائع التاريخية، وقد سميت هذه الإضافات التزييفية بالإسرائيليات وتبعتها بعد ذلك حركة علمية كبيرة أدت نفس الوظيفة ولكن بطريقة علمية ومنهجية، وتعرف هذه الحركة بالحركة الاستشراقية وقد استطاعت أن تنشر وتحيي عددا ضخما من المؤلفات الإسلامية التي وفرت مرجعية مهمة للباحثين الأوربيين والعرب في آن واحد. بل إن المستشرقين كتبوا أنفسهم مصنفات كثيرة في الدراسات العربية والإسلامية يذكر البعض بأن عددها وصل إلى ستين ألف كتاب ما بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين. وبالرغم من أن

بعض هؤلاء اتصفوا بالعلمية والموضوعية ونفعوا الثقافة والمعرفة بحق، غير أن السموم التي جاءت بها حركة الاستشراق كانت كثيفة وخطيرة واستطاعت أن تعطي صورة مشوهة عن الإسلام للمثقفين الغربيين بل أصابت سمومها كثيرا من المسلمين أنفسهم(١).

٢ ــ مرحلة التخويف (lislamophobisation) (٢):

وهي مرحلة استعملت فيها كل الوسائل لإظهار الإسلام والمسلمين والثقافة الإسلامية في شكل منفر وبشع. والهدف من ذلك هو نشر حالة من الحرج والحذر بل الخوف والفزع في العالم من الشخصية الإسلامية الفردية والجماعية. وهذه الحالة المقصود منها أن تؤدي إلى انغلاق مزدوج للعالم الإسلامي حيث ينغلق المسلمون على أنفسهم من جهة ويدفعهم غيرهم بعيدا عنهم. وقد انطلقت هذه المرحلة من مكاسب المرحلة السابقة ثم اتجهت نحو تطرف مطلق باستعمال وسائل التغليط الأكثر تضليلا.

لقد استفادت استراتيجية التخويف من ظاهرتين أساسيتين هما:

-أولا: ثورة المعلومات التي مكنت من نقل الصورة المشوهة المرسومة والملصقة بالإسلام لكل شخص ولكل بيت وفي كل الأوقات وفي كل الحالات.

-وثانيا: المظاهر المنفرة التي يرفضها الإسلام نفسه والتي يتصف بها بعض المسلمين باعتزاز أو بجهل، وكذا التصرفات العنيفة التي

---

(١) محمد عبيد حسنة، مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، دار العالمية للكتاب الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص ٢٩.

(٢) انظر في هذا الموضوع: كتاب مصطفى الدباغ، الإسلاموفوبيا، دار الفرقان.

تصدر عن بعض الحركات والمنظمات. وبالرغم من أن هـــذه السلوكيات تأخذ حيزا ضيقا جدا، وأصحابها يمثلون أقليـــة في حركة المجتمع الإسلامي في العالم إلا أنها تروج ويكرر إنتاجها الإعلامي بشكل لا ينتهي.

٣ ــ مرحلة التعميم(la phase de generalisation):

ويتعلق الأمر في هذه المرحلة بحمل الملامح المعزولة الأكثر تنفـــيرا في المجتمعات الإسلامية وتعميمها على سائر المسلمين وتقديمـــها بصفتـــها وصفا مرتبطا بكينونتهم وقد تطورت هذه المرحلة وفق فترتين:

- في الفترة الأولى استهدفت الحركات الإســـلامية المعتدلـــة إذ أصبحت توصف بأنها هي أصل التطرف[١] وأنها أخطر مـــن الحركات المسلحة وأنها تخفي عدوانيتها. والمقصد من ذلك هو إخراج هذه الحركات التي تؤدي أدوارا حضارية كبيرة مـــن مواقعها الطبيعية في مجتمعاتها من خلال إحراجها وتشويهها أو جرها إلى التطرف أو دفعها إلى الانعزال والتقوقع. وقـــد أدى طغيان بعض الأنظمة في البلاد العربية والإسلامية إلى انحـــراف

---

(١) من منظري الإسلاموفوبيا في أمريكا حاليا دانيال بايبس(Daniel Pipes) مؤســـس منتدى الشرق الأوسط(Middle East Forum) ووجه بارز في كل وسائل الإعـــلام المريكية خاصة بعد سبتمبر ومما قاله في حملة تعميم التشويه على كل الحركات الإســـلامية: "إن الفرق بين إسلامي معتدل وإسلامي متطرف هو الفرق بين نازي معتدل ونازي متطرف" أنظر: دومينيك فيدال(Dominique Vidal) ، صليبي أب عن جد (Croises, de pere en fils) العالم الدبلوماسي(Le monde Diplomatique) مـــارس ٢٠٠٣ ص. ١٧.

بعض هؤلاء عن خطهم الأصلي، إلا أن أغلبيتهم بقوا صابرين يؤدون عملهم على درب النهوض الحضاري ضمن منهج السلم والوحدة والمسؤولية. وباعتبار أن إنجازاتهم المهمة في مختلف المجالات الاجتماعية والثقافية والسياسية تفسد الاستراتيجية الصدامية الغربية فإنه لا يلتفت لها ولا يتحدث عنها.

-وفي فترة تالية أصبحت الأنظمة نفسها هي المقصودة فالحكومات الأكثر تبعية للإرادة الغربية لا سيما في المجال الاقتصادي والعلاقات الدولية توصف اليوم بأنها تتسبب في ترقية الإرهاب وتتهم بأن مناهجها التربوية تنتج الإرهاب وأن منظوماتها القانونية تثبت استمراره لا سيما في مجال الأسرة والمرأة.

وعليه فإنه لم يصبح أحد في العالم الإسلامي في مأمن من خطورة المنطق الغربي. يعبر سليم نسيب عن هذه الحالة الجديدة في مقال نشره في جريدة العالم الدبلوماسي تحت عنوان: "لكي يتم الانتهاء من العالم العربي" فيقول: لقد اكتشف الأمريكان اليوم بأن العالم العربي بملوكه الأصوليين وعساكره وإسلامييه الذين يرقصون جميعا فوق آبار البترول أصبح صعب التسيير ولا يرجى منه شيء وبالتالي لا بد من تغييره كلية[١].

(١) سليم نسيب، العالم الدبلوماسي، مارس ٢٠٠٣ ص ١٣.

٤ ــ مرحلة إضفاء الشرعية (la legitimation) :

وهي المرحلة التي يراد فيها فرض نوع جديد من الاستعمار، لا يسمى باسمه، وليس له مثيل سابق، وذلك بواسطة فرض ثنائية جهنمية في مجال العلاقات الدولية والاستراتيجية. وقد تبلورت هذه الثنائية بشكل واضح وقوي بعد حادثة ١١ سبتمبر. ويتعلق الأمر بثنائية محور الشر ومحور الخير فالذي يفكر مثل الولايات الأمريكية المتحدة ينتمي لنادي محور الخير والذي لا يمتثل لذلك هو الشر مجسدا... بل هو الإرهاب بعينه ..

ومنذ هذه اللحظة لم يبق في العالم إلا خيار واحد وهو الخيار الأمريكي، ومنذ ذاك الحين أصبح كل ما تقوله أمريكا شرعيا وأصبح من حقها أن تفرض رقابتها على كل شيء: المال، القانون الدولي، التشريعات الوطنية للدول، وكذلك القيم والآداب. وعلى الجميع أن ينسجم مع المعايير المفروضة وهذا يقتضي من عموم الدول في العالم مزيدا من التنازل لأمريكا لا سيما في مجال الاقتصاد. والمالية والعلاقات الدولية والمصالح الجيوستراتيجية.

وعلاوة على ذلك، على المجتمعات البشرية أن تتشكل من جديد حسب الطلب بواسطة مناهج تربوية وتشريعات معدة لذلك وكل ما يخالف ذلك معناه الحرب ، الصدام... صدام الحضارات...بكل شرعية.

ثانيا: المحور التطبيقي الرهانات الجيوستراتيجية:

١ ــ صراعات الوجود:

وهي الصراعات التي سمحت للحضارة الغربية القديمة(الحضارة الرومانية المسيحية) أن تنتبه إلى وجود حضارة جديدة سماوية وأن تحتك

بها لقرون طويلة خلت. فالانتشار السريع للإسلام والدخول الجماعي المكثف للشعوب من كل الأجناس والمعتقدات لم يكن ليترك أمراء وملوك الغرب آنذاك دون رد فعل. فانطلقت على إثر ذلك الحروب الصليبية وأرسلت حملات عسكرية كبيرة للمشرق العربي من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر بتحريض من البابوية. وكانت صيحة الحرب في هذه الحملات هي استعادة الضريح المقدس وحماية مملكة القدس اللاتينية. انتهت هذه الحملات بإخفاق كبير وفهم العالم المسيحي نهائيا على إثر ذلك بأن أمامه حضارة كبيرة باقية إلى الأبد. ولم تنته هذه الحقبة التاريخية دون أن تترك جراحات لا تندمل. ففي الوقت الذي كان الإسلام ينتشر بسرعة من أجل حمل رسالة هي رحمة للعالمين يسلمها لأهالي البلاد التي يفتحها ليكملوا المشوار بمحض إرادتهم كان العالم الغربي يحارب من أجل السلطة والهيمنة على ضمائر الخلق. يقول ذلك جون اسبوزيتو John Esposito بوضوح: إن الحركية التاريخية وضعت الطرفين (المسيحي والإسلامي) في مواجهة وأدخلتهما أحيانا في حروب قاتلة من أجل السلطة، والأرض، وضمائر الناس [١].

غير أن هذا الالتقاء بين الحضارتين لم يكن دون جدوى فقد سمح بوقوع احتكاك حضاري إيجابي وانتقال معرفي كبير في كل ميادين التطور البشري. لقد كانت أهمية هذا الالتقاء ذات أهمية بالغة بالنسبة للإنسانية التي تبقى بسبب هذا مدينة مدى الأبد للمسلمين[٢].

(1) John L Esposito ; the islamic Threat: Myth or reality, New York, Oxford University Press, 1992, p46.

(٢) كتبت كتب كثيرة تؤكد هذا الأمر أشهرها كتاب شمس الله تسطع على الغرب للمستشرقة الألمانية سيجرد هونكه

٢ ـ فترة الاستعمار:

إن تدهور حالة العرب والمسلمين التي أحاطت بفترة الاستعمار وظهور الثورة الصناعية في أوربا أحيت المشاعر القديمة وأخرجت الشيطان من قمقمه. فالانتقام من العالم الإسلامي في ظل هذه الواقع الجديد أصبح ممكنا وخيراته في متناول اليد. وهذه المرة نجحت الحملات العسكرية الاستعمارية فانغمس العالم الإسلامي في ليل طويل ذاق المسلمون خلاله ويلات كبيرة ودُكَّ في جسمه مسمار التخلف لقرون قادمة. كل شيء نهب، و كل شيء انتهك: الممتلكات، الحياة، الكرامة. عمت حالة من البؤس واليأس كل المجتمعات الإسلامية واسْتُغِلَّت ثرواها لدعم التقدم والتطور في بلاد الغزاة المستعمرين وبدا الفرق واضحا بين معارك الفتوحات الإسلامية وحملات الإبادة الاستعمارية.

وفي ظل هذه الظروف الجديدة شُرع في تنفيذ استراتيجية واسعة لإفراغ الشعوب المستعمرة من مضامينها الثقافية والحضارية وأصبح يراد للإسلام، الذي صنع مجد المسلمين، أن يخرج من دياره أو، على الأقل، أن لا يظهر إلا في أدنى تعبيراته كالأحوال الشخصية أو بعض الطقوس التعبدية مثلا. وللتأكد من نجاح هذه الاستراتيجية مُنِـعَ الأنديجان (السكان الأصليون) من أي سبيل للترقية الاقتصادية والاجتماعية كما حُرم أبناؤُهم من التربية والتعليم. وفي مقابل ذلك أُعدّتْ نُخبٌ منهم أُلحقت ثقافيا بالمستعمر وهُيئت لتكون في الخدمة حالا ولتضمن استمرارية مصالح أسيادها مستقبلا. غير أن الذي حدث هو أن الثقافة الإسلامية التي أريد لها أن تنطمس، هي التي قاوم بها المسلمون وهي التي ب اسمها، بزغت في ظلمة الاستعمار حركاتُ النهضة (بدءا بالأفغاني

إلى عبدو ورضا والنورسي وابن باديس والبنا وغيرهم) وتوالت حركات مقاومة كثيرة وحروب تحريرية طاحنة إلى أن تحقق الاستقلال في كامل البلاد الإسلامية.

لقد تركت هذه الفترة جراحات عميقة وعلى إثرها بدأت تظهر مشاكل بالغة الخطورة في ميادين شتى ميزت مرحلة ما بعد الاستعمار.

٣ ــ من الحرب الباردة إلى النظام الدولي الجديد: الأسس الثلاثة للسياسة الخارجية الأمريكية:

لقد ورثت فترة ما بعد الاستعمار وضعية معقدة جدا من الحقبة الاستعمارية. فالانسلاخ الحضاري لجزء كبير من النخب الحاكمة والانبهار العام بإنجازات تطور المجتمعات الغربية وحالة الأمية الشائعة والاختيارات السياسية غير الديموقراطية ومنع الحريات لم يسمح للشعوب العربية والإسلامية المتحررة من الاحتلال الأجنبي أن تتولى أمرها بيدها وأن تنشئ حكومات تسير على درب التقدم والرقي وأن تطور عملا وحدويا جادا على مستوى الأمة يعيدها إلى طليعة الساحة الحضارية. وبالرغم من أن الحركة الإسلامية نجحت نجاحا لا غبار عليه في إنشاء الوعي وإرجاع الشعوب للاعتزاز بدينها ومطلب العودة إليه إلا أنها لم تنجح إلى حد الآن في إيجاد حل لمعالجة انحرافات الحكم ولم تقدر على بناء مؤسسات قوية ومستقرة تحسم موازين القوة لصالح المثل التي نهضت من أجلها. وبقيت الحكومات في وادي والشعوب في وادي آخر. ولمعالجة ضعفها راحت مختلف أنظمة العالم العربي والإسلامي تنخرط في فضاءات الدول العظمى بدل صناعة القوة من داخل مجتمعاتها.

لقد تحولت حكومات الدول العربية والإسلامية من خلال انخراطها في فضاءات الدول العظمى في الحرب الباردة إلى مجرد وكالات لحماية مصالح الكبار. واستطاعت أمريكا أن تستفيد بشكل خاص من حاجة المسلمين لمحاربة الشيوعية آنذاك. فصارت المنطقة الأكثر ثراء في العالم العربي منطقة جيوستراتيجية حيوية في المخطط الأمريكي وجب تحصينها واعتمادها كدرع حامى في وجه الخطر الشيوعي وساحة انطلاق للزحف في اتجاه الشرق لافتكاك منطقة آسيا الوسطى ذات الأغلبية المسلمة لصالحها، وجاء الجهاد الأفغاني فكان وسيلة مواتية لذلك كما سنرى لاحقا.

بالرغم من أن العالم الإسلامي ساهم بشكل أساسي وفعال في انهيار المعسكر الشرقي إلا أن الأمر انقلب عليه لا حقا. فبعد أن تخلص الغرب من الشيوعية اتجه نحو فرض نظام دولي جديد أحادي القطب استفردت فيه أمريكا بالهيمنة على العالم، وأصبح الإسلام هو الخطر الجديد بما يملك من قدرات كبيرة للمقاومة والمواجهة وقدرات محققة للنهضة قد تعيق النظرة التسلطية الجديدة في العلاقات الدولية فهو يمثل، بالنسبة لأمريكا، خطرا كبيرا على القيم والمصالح الغربية ولذلك لا بد من الاحتماء منه بشل مؤهلاته الحضارية . ولضمان هذا حددت الولايات الأمريكية المتحدة أسس علاقاتها الخارجية مع دول المنطقة العربية والإسلامية في وثائق رسمية وزعت على مختلف السفارات الأمريكية في

المنطقة[١] ووضحت هذه الوثيقة بأن الدول الصديقة لأمريكا هي فقط التي تلتزم معها بهذه الأسس.

فما هي هذه الأسس وما هي أهدافها وأبعادها ؟

أ ـ الأساس الأول: مشروع الشرق الأوسط:

إن زرع الكيان الصهيوني في قلب الأمة الإسلامية من قبل بريطانيا ثم تقويته وتعهده من قبل أمريكا يستجيب لحاجة غربية ثنائية الأبعاد: بعد ديني حضاري من ناحية وبعد مصلحي جيوستراتيجي من ناحية أخرى:

- البعد الديني للقضية يتمثل في تشبث الحضارة الغربية اليهودية المسيحية بالأرض المقدسة في فلسطين. فما عجزت عنه الحروب الصليبية قديما لا بد من تحقيقه الآن بشكل آخر. وهذه المرة يستولي الشعب العبراني المهمة. فاليهود الذين اعتبر وجودهم في أوربا غير مرغوب فيه لدى الكثير من الساسة والحكام الغربيين منذ القدم يمكن تهجيرهم بإرادتهم واستعمالهم وقودا للمعركة الدائمة مع العالم الإسلامي من أجل إقامة دولة إسرائيل وبناء هيكل سليمان كشرط لعودة المسيح وفق ما تمليه العقيدة البروتستنتية الإنجيلية التي ينتمي إليها كثير من أصحاب القرار في الإدارة الأمريكية اليوم.
- البعد الجيوستراتيجي ويتمثل في إقامة "دولة ثكنة" في موقع متقدم وإعطاء هذه الدولة قوة خارقة يمكنها إلحاق الهزيمة العسكرية بكل دول المنطقة في كل لحظة. وتصبح هذه الدول تحت طائلة تهديدات

---

(١) اطلعت شخصية على هذه الوثيقة حصلت عليها من سفارة الولايات الأمريكية المتحدة في الجزائر.

القوة العسكرية الإسرائيلية ولا سيما القوة النووية[١] بشكل دائم إلى أن تقبل التفاوض مع الكيان الصهيوني والدخول معه في علاقات "مطبعة" تكون في صالح الكيان الإسرائيلي وتحقق ميزان قوة في المنطقة يضمن المصالح الجيوستراتيجية لحلفائه الغربيين ولا سيما الولايات الأمريكية المتحدة: إنه المشروع الذي أطلق عليه اسم مشروع الشرق الأوسط.

إن أهداف المشروع الشرق أوسطي تتمثل إذن في ما يلي[٢] :

- تحقيق قدر من الاستقرار لحفظ المصالح الأمريكية الغربية في المنطقة، وضمان أمن إسرائيل.
- **بناء قواعد اقتصادية وأمنية وسياسية واجتماعية من أجل:**
- تدمير البنية التحتية للأمن القومي العربي.
- تغيير الهوية الحضارية للمنطقة.
- تكريس التفريط بحقوق الشعب الفلسطيني الأساسية، وإنهاء قضيته عبر الاحتواء الإسرائيلي الغربي والدولي.

---

(١) للاطلاع أكثر على مخاطر الترسانة النووية الإسرائيلية انظر: تقرير مركز دراسات الشرق الأوسط: القدرات النووية الإسرائيلية، الخطر الاستراتيجي على الأمن ولسلام في الشرق الأوسط ، آب /أغسطس ١٩٩٩.

(٢) جواد الحمد، عملية السلام في الشرق الأوسط. مركز دراسات الشرق الأوسط، عمان ١٩٦٩.

- اعتبار إسرائيل قوة إقليمية متعاونة ورئيسة في المنطقة ضمن نظام الشرق الأوسط، وكسر الحاجز النفسي بين العرب واليهود، وإحداث تحول في التعاطي العربي مع إسرائيل،والتفاوض معها.
- خفض طموح وآمال العرب إلى السقف الذي يعرضه الطرف الإسرائيلي.
- عزل وإضعاف قوى النهوض والمقاومة، وتأسيس قاعدة مشروع السلام في نقطة قاعدة الحرب (فلسطين).

إن هذا المشروع المدمر واجه صعوبات كبيرة جعلت تجسيده أمرا مستحيلا وتمثلت هذه الصعوبات أساسا في ما يلي:

- مقاومة الشعب الفلسطيني الذي رفض بشكل عملي الانخراط في هذا المشروع الذي يضيع تضحياته ومقدساته والذي يخضعه إلى الأبد للهيمنة الصهيونية(الانتفاضة الأولى والثانية).
- الجرائم الإسرائيلية التي فضحت الأهداف الصهيونية التي لا تنظر للاتفاقيات مع الأنظمة العربية والسلطة الفلسطينية إلا من الزاوية الأمنية ولا تنتظر من هؤلاء إلا مزيدا من التنازلات وتطبيع العلاقات ومزيدا من الجهد لإنهاء كل أشكال المقاومة.

ب ــ المصالح الجيوستراتيجية الأمريكية:

إن عملية رسم الحدود من قبل القوى الاستعمارية لتقسيم الأراضي على الدول المتحررة من الاستعمار خضعت للقاعدة التالية: "مزيدا من الثروات لدول ضعيفة" أي تشكيل دول صغيرة تتربع على ثروات طبيعية كبيرة . والنتيجة هي: الأنظمة التي حكمت هذه الدول قبلت الحل الأسهل ووضعت ثرواتها وسيادتها بين يدي القوى الغربية من

أجل، حسب ما بدا لها توفير حماية أفضل. فرجع نظام الحماية الغابر من جديد بإرادة أصحاب الأرض أنفسهم وأصبحت المنطقة العربية الأكثر ثراء محمية غربية حقيقية وتحولت إلى منطقة جيوستراتيجية ذات أهمية قصوى للولايات الأمريكية المتحدة. ثم تطور الأمر فأصبحت هذه البلاد العربية هي الأخرى، بالتوازي مع الكيان الصهيوني، ثكنة متقدمة في مناطق النفوذ الأمريكية ولكن لمواجهة المد الشيوعي آنذاك. فمن جهة يمثل الكيان الصهيوني قلعة متقدمة في الاستراتيجية الغربية لمواجهة الدول العربية ومن جهة أخرى تمثل المنطقة العربية ذاتها قلعة متقدمة في الاستراتيجية الغربية لمواجهة المد الشيوعي. وبالفعل فقد تمكنت الولايات الأمريكية المتحدة من استعمال العالم العربي والإسلامي لإنهاء النفوذ السوفيتي في آسيا الوسطى. فلقد استطاعت أن تستعمل الحرب الأفغانية ضد الاحتلال السوفيتي التي اعتبرها عموم المسلمين رمز الجهاد الإسلامي في القرن العشرين في تنفيذ مخططها لإضعاف الاتحاد السوفيتي وحرمانه من التحكم في ثروات آسيا الوسطى[1] للانقضاض عليها

(١) يقول ألفونسو أرتيكو (Alfonso Artico) في مقال بعنوان: أفغانستان في زمن الطالبان في مجلة وجهة نظر الفرنسية (Maniere Devoir(عدد رقم ٢٩، فبراير ١٩٩٦: لقد حصلت آسيا الوسطى كل أهميتها الاستراتيجية والاقتصادية منذ انهيار الاتحاد السوفيتي.... يوجد في أوزبكستان (شمال أفغانستان) أكبر منجم ذهبي في العالم، وتنطوي طاجكستان (شمال ـــ شرق أفغانستان) على أكبر عرق معدني من الفضة في الكرة الأرضية، ويحتوي باطن كزاخستان (نحو الشمال اكثر) على ربع الاحتياطي العالمي من البترول. ثم يتحدث عن الاضطرابات الحاصلة في هذه المنطقة وخاصة في أفغانستان باعتبارها أهم ممر لكل هذه الخيرات فيقول: إنها حرب بلا شفقة من أجل تحرير هذا المحور الاستراتيجي.

لاحقا والاستئثار بها دون غيرها وإنهاء الحرب الباردة ووضع نظام دولي جديد احتكرت تزعمه.

لم تعتمد الولايات الأمريكية المتحدة الحرب بالوكالة ضد خصومها في أفغانستان فقط بل إنها سعرت وقود حرب طاحنة أخرى ضد عدو لم يكن في الحسبان هو الثورة الإيرانية التي أسقطت بشكل مفاجئ حليفا قويا في إيران متمثلا في نظام الشاه. حينما بدأ قادة هذه الثورة يهددون بتصديرها خارج إيران شعر النظام العراقي الذي يضم بلده أغلبية شيعية نسبية بنوع من الخوف من أن تنقلب الموازين الداخلية ضده بتأثير خارجي. وفي نفس الوقت شعرت الأنظمة الخليجية الضعيفة التي تعتبر نفسها حامية العقيدة السنية في العالم هي الأخرى باقتراب خطر كبير يتهدد وجودها. فوفّر هذا الوضع مناخا مناسبا للولايات الأمريكية لتخوض معركة طويلة بجيوش غير جيوشها وجنود غير جنودها وبمال غير مالها واستفاد النظام العراقي من دعم كبير من دول الخليج وأمريكا، غير أن هذا الدعم لم يكن حاسما لإنهاء الحرب الخليجية الأولى لصالحه في وقت قصير.

ومع هذا انتهى الصراع الدامي وقد أصبح للعراق ترسانة عسكرية قوية ومتطورة تؤهله ليكون قوة إقليمية كبيرة قد تزعج المخططات الأمريكية في المنطقة وقد تكون خطرا حقيقيا على الكيان الإسرائيلي، فجاءت حرب الخليج الثانية لتبطل هذه المخاوف الأمريكية على إثر غزو النظام العراقي للكويت بسكوت يشبه التشجيع من إدارة بوش الأب الذي شكل بعد الواقعة تحالفا دوليا مكنه من تحقيق مكاسب اقتصادية كبيرة لبلده ومن توسيع نفوذه في المنطقة إلى حد لم يكن

متصورا وإدخال النظام العراقي وشعبه في عزلة وحصار لمدة أكثر من عشر سنوات.

وهكذا انتهت الحرب الباردة بوضع نظام دولي جديد أحادي القطبية هيمنة أمريكية مطلقة. ووجد العالم العربي والإسلامي نفسه في وضع سياسي واقتصادي وأمني مأساوي وتجلت حقيقة الحكم العربي الفاسد بقيادة أنظمة طاغية ومرتشية تكفل الغرب بحمايتها لمدة طويلة لإبقاء الأمة العربية والإسلامية في حالة تخلف دائمة وشاملة تتجاوب مع منطق صراع الحضارات في ثوبه الجديد بعد فترة الاستعمار.

ج ـ المعايير الأمريكية للديموقراطية وحقوق الإنسان:

- لا يخفى على أحد أن الولايات الأمريكية المتحدة لم هتم يوما بوضع الديموقراطية وحقوق الإنسان في العالم العربي والإسلامي إلا بما يخدم الأساسين المذكورين أعلاه واللذين ترتكز عليهما سياستها الخارجية: المصالح الاستراتيجية والسلام على المقاس الصهيوني. وللتأكد من هذا الأمر يكفي أن نُقيّم الحالة الديموقراطية في المنطقة العربية والإسلامية ونتابع في نفس الوقت تطور علاقات الولايات الأمريكية المتحدة مع أنظمة هذه المنطقة ليتضح لنا بيسر بأن مراقبة وضع الديموقراطية وحقوق الإنسان من قبل الإدارة الأمريكية لا ينبئ عن نوايا طيبة البتة.

فالديموقراطية وحقوق الإنسان لا تمثل في السياسة الخارجية الأمريكية إلا أسلحة من أفتك الأسلحة التي تسلطها على مختلف حكومات العالم لمزيد من الابتزاز والخضوع. وفي إطار هذه الحقيقة الثابتة نجد أن كثيرا من الأنظمة التي تتناقض تناقضا تاما مع أدنى معاني

الحقوق الأساسية الآدمية لم تزعجها على الإطلاق الولايات الأمريكية المتحدة طالما بقيت في تجانس تام مع الاشتراطات التي تمليها عليها. في حين أننا نجد أنظمة أخرى ليست أقل احتراما للحقوق والحريات والكرامة الإنسانية من أنظمة صديقة لأمريكا لا تنتهي متاعبها مع المنظمات غير الحكومية والهيئات الأممية التي تهتم بحقوق الإنسان والتي نعلم مدى تأثير الإدارة الأمريكية عليها. وهذه الملاحقة التي تطال هذه الأنظمة ليست بسبب سلوك الأنظمة غير الإنساني ولكن لأنها متمردة أو تحاول التمرد على إرادة القوة الأمريكية العظمى.

والملفت للنظر أن هذه القوة العظمى يمكنها أن تتحول بين الرضا والسخط عن وضعية الديمقراطية وحقوق الإنسان في البلد الواحد حسب ما تمليه عليها ثوابت سياستها الخارجية[1].

- إن الذي تحدثنا عنه بخصوص علاقة أمريكا مع الأنظمة الحاكمة في موضوع حقوق الإنسان في هذه المرحلة ينطبق تماما على علاقتها مع مختلف قوى المجتمع. فالتنظيمات التي يعمل الغرب بشكل عام على إبرازها تمثل دوما شقي التطرف في العالم العربي والإسلامي وهي إمّا التنظيمات الإسلامية المتشددة التي يتبنى بعضها القتل والتدمير باسم الدين من جهة وإمّا التنظيمات العلمانية واللادينية

---

(١) عشنا في الجزائر تطبيقا سافرا لهذه السياسة فقبل أن يسير النظام الجزائري كلية ضمن السياسة الخارجية الأمريكية في المنطقة كانت منظمات حقوق الإنسان لا تترك هذا النظام يلتقط أنفاسه بملاحقات لا تنهي بشأن المجازر والمفقودين وحرية الصحافة وغير ذلك مما له علاقة بحقوق الإنسان وحينما أدركت أرباب الشركات البترولية أغراضهم في صحراء الجزائر ومنهم ديك شيني نفسه سكت كل شيء.

التي تصادم بكل جرأة قيم وثوابت شعوب بلدانها. وبالرغم من أن أفراد هذه التنظيمات لا تمثل في حقيقة الأمر إلا أقلية لا وزن لها في بلدانها إلا أن الغرب يحرص على أن لا يرتسم في ذهن سكان المعمورة عن الإسلام والمسلمين إلا ما يصدر عن هؤلاء. وفي مقابل ذلك نجد في العالم الإسلامي تنظيمات أخرى وفية لحضارتها ذات مد اجتماعي كبير تساهم بشكل جاد في ترقية مجتمعاتها وإخراجها من التخلف والهوان وتناضل بصدق من أجل سيادة الحق والعدل لا نعثر على أثر لها في الخطاب الغربي. بل ويقمع كثير منها من قبل أنظمة بلادها وتصادر حقوقها دون أن تحرك هيئات حقوق الإنسان لذلك ساكنا[١].... كل ذلك لأن هذه التنظيمات لا تسير على النغمة الغربية الأمريكية بل هي معارضة لها أشد المعارضة وعازمة على مقارعتها بالطرق السلمية إلى أن يحقق الله ما يريد.

لقد نجحت الولايات الأمريكية المتحدة نجاحات كبيرة في هذه المرحلة ووفرت لنفسها قوة عظيمة تسمح لها بالتخطيط لاقتحام فترة جديدة تعمل فيها على إنهاء كل احتمالات النهوض لأي حضارة أخرى غير الحضارة التي تتزعمها وفق النظرة الهنتنتونية. وباعتبار أن

---

(١) أذكر أنني في سنة ١٩٩٥ اتصلت بمسؤول اللجنة الدولية لمراقبة الانتخابات الرئاسية في الجزائر في هذه السنة السيد كوبوس وأطلعته على بعض أدلة التزوير الذي وقع في تلك الانتخابات آنذاك والذي وقف عليه كذلك معاونوه فلم يحرك ساكنا لأن، في اعتقادي، المرشح الذي كان ضحية التزوير هو الشيخ محفوظ المعروف بإسلاميته ووطنيته.

الحضارة الإسلامية هي أكثر الحضارات استعصاء للهيمنة الغربية وأن بلاد المسلمين هي القلب النابض للمصالح الغربية الأمريكية فإن مسرح الأحداث في المرحلة المقبلة سيكون العالم الإسلامي. وسيكون المبرر هي الجماعات الإسلامية المتشددة التي طالما لقيت ملاذا آمنا في بلاد الغرب وهي اليوم جاهزة، من الغرب نفسه، للقيام بعمل عظيم يؤذن باندلاع حرب كبيرة تنقل العالم كله إلى وضع جديد يفتح فيه المجال للولايات الأمريكية لتفعل ما تريد بشرعية تصنعها لنفسها في كون خال من كل مقاومة لهيمنتها.

٤ ـ مرحلة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر:

إن أحداث سبتمبر بكل فظاعتها وغموض شأنها والتفسيرات المتضاربة حولها وبعد آثارها النفسية اللامحدودة خدمت بشكل كامل مخططات أصحاب التوجه الهنتنتوني في البيت الأبيض حيث استطاع هؤلاء أن يثبتوا للعالم بأن ثمة صراعا حقيقيا بين الحضارات وأن الحضارة الغربية عليها أن تبادئ غيرها لتضمن استمرار الهيمنة فلا بد إذن من **حروب وقائية** تدمر فيها كل من يهدد مخططاتها ولو بالشبهة واختلاق الأسباب.

إن خطورة هذا الحدث الكبير تكمن في الشرعية التي منحتها الولايات الأمريكية لنفسها لفرض قواعد اللعبة في العلاقات الدولية وبسط نفوذها على خيرات العالم وتدمير كل جيوب المقاومة لإرادتها بموافقة الهيئات الدولية بشكل مباشر أو غير مباشر وبمباركة "نفاقية" للدول العظمى الأخرى والدوس من الجميع على مبادئ الحق والعدل.

إن هذه الشرعية المغشوشة التي نزعتها أمريكا من رحم الأحداث الدولية (التي ساهمت هي نفسها بشكل أساسي في وقوعها) فسحت لها المجال واسعا للدخول في حروب مدمرة جلبت بها لنفسها منافع لا تحصى على حساب أشلاء ودماء ومقدرات شعوب الأمة الإسلامية.

وفي أقل من ثلاث سنوات من بداية هذا القرن الجديد أشعلت نار حربين كبيرتين على الأمة الإسلامية، الأولى في أفغانستان بحجة محاربة الإرهاب والثانية في العراق بحجة تدمير أسلحة الدمار الشامل.

إن العارفين بشؤون السياسة الخارجية الأمريكية أو على الأقل المطلعين على ما يكتبه ويصرح به زعماء البيت الأبيض ومستشاروهم يعلمون بأن هاتين الحربين كانتا مبرمجتين قبل الحادي عشر من سبتمبر وأصبح السؤال بعد هذا التاريخ بأيهما يكون البدء. فلقد كان عدد من مستشاري الرئيس الأمريكي ومنهم خصوصا فولفوفيتس يريدون البدء بالعراق منذ الأسبوع الأول بعد حادثة ١١ سبتمبر [1] ..... وفي كل الأحوال كانت الأهداف مسطرة مسبقا... فما الذي أريد من هاذين العدوانيين:

أ – الحرب على الإرهاب: العدوان على أفغانستان:

لا يصدق أحد أن الأهداف الحقيقية التي قادت أمريكا وحلفاءها إلى أفغانستان هي ملاحقة بن لادن وتنظيم القاعدة في حربها ضد الإرهاب.

---

(1) Michael Ledeen, The War against the Terror Masters, St Martins Press, 2002.

إن واقع الحال وتطورات الموقف وتصريحات الرسميين تدل بأن الأهداف الحقيقية تتجاوز هذا الأمر بكثير ومن هذه الأهداف ما يلي:

- دعم موقع حليفها الصهيوني في المنطقة من خلال السماح له بالاستفادة من المناخ الدولي الجديد وذهول الأنظمة العربية لتصفية القضية الفلسطينية بتدشين مسار جديد بعد عجز السلطة الفلسطينية على التكفل بتقويض المقاومة وفق مقررات أوسلو ويرتكز هذا المسار على سياسة التدمير المادي والمعنوي للشعب الفلسطيني من خلال الاقتراف المبرمج للمجاز في صفوف المواطنين وتدمير المنازل والمنشآت وإحكام الحصار على كل الأحياء وتغيير البنى الاجتماعية والسياسية بالقهر والإكراه وملاحقة كل أشكال المقاومة واعتبارها إرهابا دوليا يجب محاربتها ضمن الحرب العالمية على الإرهاب.!
- حشد الولايات الأمريكية قواها وقواعدها قرب دول عظمى مؤهلة لمواجهة الهيمنة الأمريكية وفق نظرة صدام الحضارات وهي روسيا والصين وإيران والهند.
- توسيع مجال المصالح الأمريكية إلى آسيا الوسطى بعدما طرد منها الاتحاد السوفيتي في فترة سابقة والاستئثار بالأهمية الجيوستراتيجية التي تتمتع بها المنطقة باعتبار الثروات الكبيرة الموجودة والمحيطة بها وإمكانية تحويلها إلى ممر آمن للطاقة من خلال فرض نظام عميل يتكفل بضمان رعاية المصالح الأمريكية.
- استغلال المناخ الجديد لوقف تطور حالة الوعي التي اتسم بها الوجود الإسلامي في عدد من البلدان الغربية وخصوصا في أمريكا

حيث بدأ يظهر حرص المسلمين على الاستفادة من حق المواطنة وأخذت مؤسساهم تتطور بشكل واعد ينبئ بقدرة مستقبلية معتبرة تنافس في التأثير القوى الأخرى وخاصة الوجود الصهيوني.

- تكبيل الحريات ومراقبة القوى المعارضة لهيمنة الحضارة الغربية وملاحقة التنظيمات الإسلامية المعتدلة باعتبارها البديل الفاعل للأنظمة الحاكمة والتي تعمل بجد لصياغة مشاريع تنموية واجتماعية وسياسية وفية لقيم الأمة ومصالحها ومستقلة عن سلطان الإرادة الأمريكية واهامها بمساندة الإرهاب أو إنتاجه.
- إرغام أنظمة الدول العربية والإسلامية التي أصبحت عاجزة فعليا على حماية سيادة أوطاها على تكييف المنظومة التشريعية وفق الإملاءات الأمريكية وتفريغ المنظومات التربوية، تحت طائلة مكافحة الإرهاب، من كل ما من شأنه أن يرسخ الانتماء الحضاري ويوقظ روح المقاومة في النفوس في مواجهة مخططات التغريب.
- إلهاء الرأي العام الغربي عن مشاكله الداخلية وعن الأهداف الحقيقية للسياسة الخارجية للإدارة الأمريكية وتجنيد الشعب الأمريكي في حروب قررها لوبيات ومجموعات مصالح تشتغل وفق أجندة لا علم لبسطاء الناس بها.

ب – نزع أسلحة الدمار الشامل: العدوان على العراق:

لا يمكن بطبيعة الحال فصل أهداف عدوان الولايات الأمريكية المتحدة على أفغانستان عن أهداف عدواها على العراق ولا يمكن التمييز بينهما إلا من خلال اختلاف الخصوصيات والموقع:

- **القضية الفلسطينية**: يعتبر استهداف القضية الفلسطينية في العدوان على العراق الشق الثاني من المؤامرة بعد الحادي عشر من سبتمبر فبعد بدء إعادة ترتيب الوضع داخل الأراضي الفلسطينية ضمن مخطط الحرب على الإرهاب من خلال ضرب المقاومة وفرض سلطة فلسطينية جديدة أكثر عمالة جاء العدوان على العراق ليتيح فرصة إعادة ترتيب الوضع لصالح الكيان الصهيوني خارج الأراضي الفلسطينية وذلك من خلال:

- تدمير القدرات العسكرية العراقية التي قد تمثل قوة إقليمية يمكن أن تشكل ترسانتها العسكرية لا سيما الصاروخية منها خطرا على أمن إسرائيل ووضع نظام عميل للإدارة الأمريكية في العراق يقبل إبرام معاهدة سلام مع الكيان الصهيوني.
- إحكام الحصار على إيران بعد أن نشرت أمريكا قواها في القوقاز وآسيا الوسطى وأفغانستان وباكستان وعزل سوريا بين تركيا والكيان الإسرائيلي المرتبطين بشراكه إستراتيجية قد يلتحق بها النظام العراقي المقبل وإضعاف موقف البلدين(إيران وروسيا) تجاه القضية الفلسطينية وحزب الله في لبنان وتهديدهما تهديدا مباشرا وربما نقل العدوان إليهما بعد إنهاء الحرب على العراق.
- ترويع دول المنطقة كلها ودفعها بسرعة إلى التطبيع الكامل مع الكيان الصهيوني وتجسيد مشروع الشرق الأوسط من خلال اسمه الجديد خارطة الطريق أو أي مُسمّى آخر.

- الهيمنة الكلية على الخليج العربي وموارده النفطية التي تمثل أكثر من ثلثي الاحتياطات النفطية المعروفة على المستوى العالمي علما بأن

هذه المنطقة تمثل بالنسبة للدول الغربية وخصوصا أمريكا عاملا أساسيا في نمو اقتصادياتها وأنماط حياتها إلى درجة أن المسؤولين الأمريكيين يصرحون بشكل واضح بأن كل محاولة من أي قوة خارجية للتحكم في هذه المنطقة يعتبر هجوما على أمريكا يقتضي الرد بكل الوسائل ومنها القوة العسكرية (وقد قدمنا شواهد على ذلك أعلاه). ولا يمكن في هذه الحالة أن تقبل أمريكا بتمرد دولتين عن إرادتها في هذه المنطقة وهما إيران والعراق. وفي هذا الإطار قدَّرت أمريكا بأن التخلص من النظام العراقي يمكن أن يكون مباشرا وهو أسهل عليها بسبب العداوة الحاصلة بين هذا النظام وبين جيرانه ومعارضة كثير من العراقيين له وبسبب إرهاقه من جراء طول الحصار.

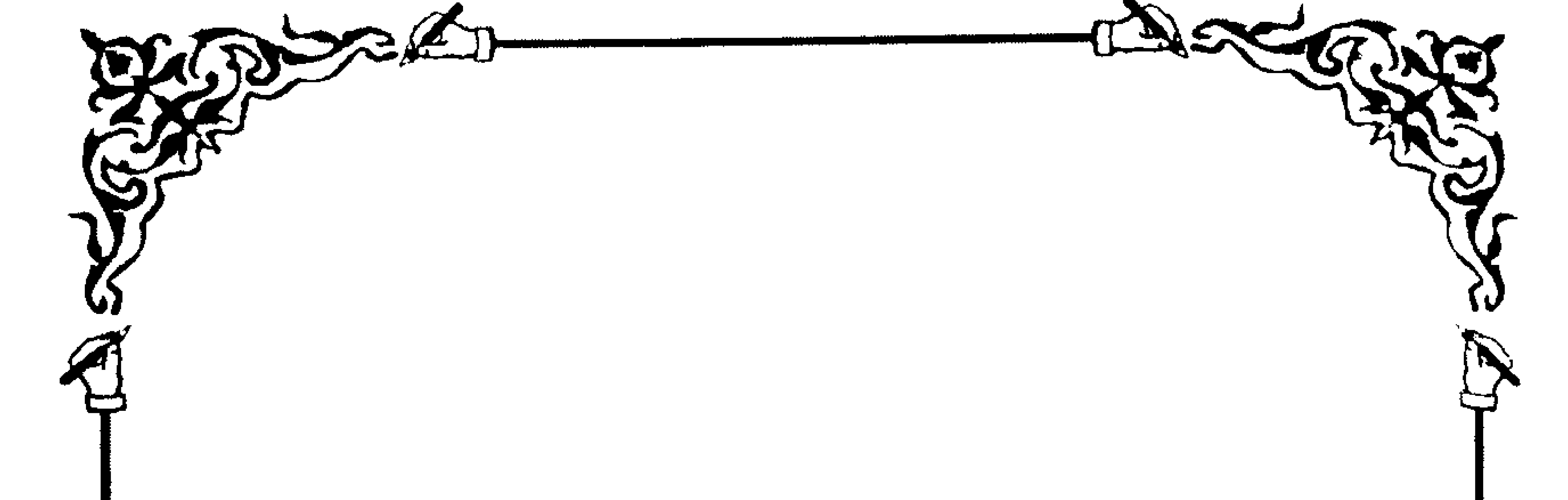
- ترسيخ الأحادية القطبية الدولية من خلال ترسيخ التفوق الاقتصادي بعد التحكم الكلي في موارد الطاقة وممراتها في منطقة الخليج وآسيا الوسطى وجعل مراكز القوى الدولية الأخرى مرتبطة بها لا سيما الاقتصاديات النشطة كأوربا وخاصة الصين التي سيلجئها تطورها الاقتصادي المستمر إلى احتياجات متزايدة للنفط.
- تأكيد الولايات الأمريكية المتحدة لهيمنتها العسكرية على العالم بعد أن حلت جيوشها في محيط الدول العظمى كلها وإظهار جبروتها العسكري واستعراض أنواع أسلحتها الفتاكة في حرب حقيقية ضد بلد منهك كالعراق، واعتماد أساليب استفزازية استكبارية كالاستخفاف بالمؤسسات الأممية والتعرض لرموز الدول

العظمى مثل الاستهزاء بالتاريخ الفرنسي وإصابة السفير الروسي في بغداد كما حدث مع السفارة الصينية في حرب البلقان .

- تحريك الاقتصاد الأمريكي بواسطة إتاحة فرص ضخمة للشركات الأمريكية للعمل في إعادة إعمار العراق علما بأن هذه الشركات مثلها مثل الشركات البترولية لها صلات وثيقة بأصحاب القرار في الإدارة الأمريكية.


يتضح من هذا السرد الطويل بأن فكرة صدام الحضارات حالة دائمة في الفكر والسلوك الغربيين. فهل هذه الحالة قدر لازم على البشرية أم أنه من الممكن فعل شيء ما ؟.

فما الذي يمكن أن يحدث وما العمل ؟.



الفصل الرابع

العالم العربي والإسلامي والعدوان على العراق: كيف وإلى أين ؟



إن الصراع الذي تفرضه أمريكا على العالم العربي والإسلامي يندرج ضمن فكرة الحرب الوقائية التي تستهدف الدول المحورية في هذا العالم وفق نظرية صدام الحضارات التي يعتقد أصحابها بأن الصدام بين الأمم سيكون حضاريا وبدايته تكون بتدخل دول محورية في كل حضارة في صراعات وتحالفات دولية اقتصادية وعسكرية ضد الغرب وخصوصا أمريكا ولهذا السبب فإن الفتن التي تدور رحاها في العالم العربي والإسلامي تتعلق جلها بدول مهمة في العالم الإسلامي تتمتع بالخصائص المؤهلة للتطور كالموارد الطبيعية والجغرافيا والسكان ومن هذه الدول: الجزائر،ليبيا، مصر، السودان، السعودية، العراق، إيران، تركيا، باكستان، إندونيسيا.

إن هذه الأقطار تخضع بأشكال وكيفيات مختلفة إلى نفس المخطط الأمريكي الذي يظهر في أشكال متعددة وفق ما يلي :

- الهيمنة المطلقة بالنسبة لجزء من الدول العربية من خلال استغلال أو خلق أوضاع صعبة تلجئ هذه الدول إلى الاحتماء بالمحيط الخارجي الذي أصبحت تسيطر عليه الولايات الأمريكية المتحدة والدخول على إثر ذلك في مسار التنازل المستمر عن سيادتها وهذا الذي يحدث من جهة للسعودية وسائر دول الخليج وباكستان من أجل الحصول على حماية عسكرية وأمنية من مخاطر خارجية خصوصا بعد حرب الخليج الثانية، و من جهة أخرى هذا الذي يحدث بشكل آخر لمصر والسودان وإندونيسيا وربما الجزائر لاحقا بغرض الحصول على دعم اقتصادي ومالي أو المساعدة على الحسم أو على الأقل عدم التدخل في الصراعات الداخلية السياسية أو العرقية والطائفية.

- الحصار والابتزاز بالنسبة لدول عربية وإسلامية أخرى تحاول مقاومة إرادة الهيمنة الأمريكية من خلال ملاحقتها في مجال أدوات الديموقراطية وحقوق الإنسان ونزع أسلحة الدمار الشامل ومحاولة تأزيم أوضاعها الداخلية وإدخالها في فوضى واضطراب إلى أن يراجع حاكمها سياستهم وفق الإملاءات الخارجية وهذا الذي وقع للجزائر والسودان سابقا وهذا الذي يراد الآن من إيران وسوريا.
- وحينما لا ينفع كل هذا فقد أثبتت أمريكا بأنها لا تتردد في التدخل العسكري المباشر كما يحدث الآن في العراق.

إن تميّز خطورة الخطوة الإجرامية التي خطتها الإدارة الأمريكية في العراق ستؤدي لا محال إلى حدوث كثير من التحولات غير الاعتيادية في المنطقة وفي العالم بأسره وسنحاول في ما يلي رصد هذه التحولات وفق الاحتمالات الممكنة :

١- بعد نجاح الحملة العسكرية الأمريكية وإسقاط النظام الحاكم يتم تسليم البلد للعراقيين ليقيموا نظاما ديموقراطيا بأنفسهم ويتمتعوا بخيرات بلادهم: وهذا الاحتمال الذي تُسوِّقه الإدارة الأمريكية وخاصة البريطانية لا يمكن تصوره ولا التفكير فيه ويتنافى كلية مع الاستراتيجية الأمريكية التي تحدثنا عنها طوال هذا البحث.

٢- بعد نجاح العدوان العسكري الأمريكي والسيطرة على العراق وإسقاط النظام يتم وضع نظام عميل يحكم العراق كله بشكل يراعي التوازن بين الطوائف والأعراق ويحقق الاستقرار لحساب المصالح الأمريكية الصهيونية ويحول العراق إلى بلد ريعي يتراجع فيه الاقتصاد الصناعي والفلاحي والخدماتي الذي تميز به ومكنه من الصمود في السنوات الماضية : وهذا الاحتمال هو الذي تريده أمريكا وتخطط له وهو أكثر الاحتمالات خطورة على الأمة

العربية والإسلامية وعلى العالم كله لأنه يمكن من تجسيد أهداف العدوان التي نذكر بها هنا بشكل آخر:

- حدوث خيبة أمل عامة في العالم العربي والإسلامي يدخل الشعوب في حالة يأس وشلل وعزوف عن أي مبادرة للانعتاق والتحرر.
- استسلام كلي من قبل الأنظمة العربية والإسلامية والانخراط في المخططات الأمريكية والصهيونية دون مقاومة بسبب الفزع من جهة و بسبب التبعية الاقتصادية المطلقة التي ستنتج عن تحكم أمريكا في السوق البترولية والقيمة النفطية التي ترتكز عليها اقتصاديات كثير من دول المنطقة.
- العدوان على دول عربية وإسلامية أخرى بشكل مباشر من خلال التدخل العسكري أو بواسطة فرض تغييرات جذرية في مختلف المنظومات الوطنية.
- التضييق على كل القوى الوطنية المخلصة في العالم العربي والإسلامي الرافضة للهيمنة الأمريكية وملاحقتها على كل الأصعدة وإدخال المجتمعات العربية والإسلامية في منظومات ديموقراطية سطحية تهيمن فيها نخب جديدة أسوء من النخب الحاكمة السابقة.
- تغيير النظام الدولي بما يضمن تكريس الهيمنة الأمريكية على العالم لفترة طويلة مقبلة ويجعل الأمم المتحدة ومختلف الأجهزة الأممية أدوات لخدمة المصالح الأمريكية بكل شرعية وسيؤدي هذا إلى مساس كبير بحقوق الأمم والشعوب والطبيعة وحتى الإنسان العادي في الدول الغربية بسبب جشع وتغول المنظومة الليبيرالية التي تتزعمها الولايات المتحدة.

٣- بعد نجاح الحملة العسكرية في إسقاط النظام تتوقف مقاومة الاحتلال ثم تبرز صراعات داخلية تغذيها أمريكا تلجئ إلى تقسيم العراق إلى دولتين الأولى كردية في الشمال والثانية عربية سنية ـــ شيعية في الوسط والجنوب تسيطر عليها الشيعة أو ثلاثة دول: كردية وسنية وشيعية، وهذا احتمال وارد ولكن لا تحبذه الإدارة الأمريكية ابتداء لأنه مكلف ويتسبب في توترات إقليمية قد تخرج على السيطرة ولكن قد تعتمده إذا عجزت على الهيمنة على العراق موحدا.

٤- بعد نجاح الحملة العسكرية في الغزو وإسقاط النظام تعجز السلطة المكلفة بإدارة العراق على تحقيق الاستقرار مما يدفع أمريكا إلى تحصين بغداد والمواقع البترولية وترك المجتمع العراقي في فوضى عارمة مثلما هو الحال في أفغانستان وقد يحدث هذا في حالة استمرار مقاومة مؤذية ولكنها تبقى ضعيفة غير فاعلة لأنها تكون غير مسنودة من المحيط الخارجي للعراق أو بسبب اضطرابات داخلية غير متحكم فيها أو بسبب عدم مشاركة دول أخرى غير الدول المعتدية في الإنفاق على إعادة الإعمار بسبب الصراع على الامتيازات والصفقات وعجز القدرات الإنتاجية للبترول العراقي وظهور صعوبات اقتصادية كبيرة في أمريكا وهو خيار وارد في تفكير بعض المنظرين في البيت الأبيض ومنهم مايكل ليدن Michael ledeen الذي يقول بشكل واضح بأن بلده لا يريد الاستقرار في إيران والعراق وسوريا ولبنان وحتى العربية السعودية بل إن القضية تكمن في نظره في كيفية ضرب استقرار هذه الدول لكي تتمكن أمريكا من القيام بمهمتها التاريخية. غير أن هذا الخيار لا أعتقد بأنه يكون مفضلا لدى الإدارة الأمريكية

لأنه يظهر عجزها على تحمل مسؤولية الحرب لا سيما وأنها خاضتها بغير شرعية أممية وقد يتسع هذا الاضطراب إلى خارج الحدود العراقية ويؤثر سلبا على دول حليفة في المنطقة خصوصا الكيان الإسرائيلي ولتجنب هذه الحالة لا تزال تحرص الإدارة الأمريكية على الرجوع للأمم المتحدة بعد الحرب بشأن الإنفاق على إعادة الإعمار (وليست صفقات الإعمار).

٥- بعد نجاح الحملة العسكرية في احتلال العراق وإسقاط النظام تعجز الولايات الأمريكية المتحدة على تحقيق الاستقرار في بغداد أو أي مدينة أخرى من المدن الكبرى وتعجز على ضمان حماية جنودها ومواليها وحماية آبار النفط وطرق توصيله خارج العراق، ويمكن أن يتحقق هذا في حالة بروز مقاومة قوية مزدوجة، سلمية أولا إلى حين انكشاف النوايا الأمريكية الحقيقية في العراق والمنطقة ثم سلمية ومسلحة تلتحم بها كل شرائح المجتمع العراقي ومختلف طوائفه وأعراقه، وتكون مسنودة من المحيط الخارجي ومعترف بشرعيتها خارجيا خاصة في العالم العربي والإسلامي مع عدم اعتراف الأنظمة العربية والإسلامية بأي حكومة أو إدارة تفرضها أمريكا.

وهذا الاحتمال هو الخيار الطبيعي المنتظر من الشعب العراقي ومن القوى المخلصة لوطنها التي كانت معارضة للنظام، والمطلوب من مختلف القوى في العالم العربي والإسلامي أن تسند هذا الخيار وأن تفرض على حكوماتها أن تسير على ذلك والفوائد التي يجلبها هذا الخيار كثيرة منها:

- تحقيق الأثر الاقتصادي العكسي الذي قصدته الإدارة الأمريكية من عدوانها على العراق من خلال استنزافها وتعظيم الكلفة المالية لوجودها في العراق.
- قلب الرأي العام الأمريكي ضد الإدارة الحاكمة بسبب الخسائر البشرية المستمرة مثلما حدث في فيتنام والصومال ولبنان وغيرها وبسبب تراجع الاقتصاد الأمريكي في هذه الحالة.
- بداية تحول العلاقات الدولية نحو التعددية القطبية مما يساعد على توفير أجواء الحرية والأمن والقدرة على العمل وفرص التطور في العالم العربي والإسلامي وإمكانية النهوض الحضاري.
- رفع معنويات الشعوب العربية والإسلامية وشحذ هممها وإيمانها بإمكانية الصعود والخروج من الهوان وسلوك طريق العز والنمو.
- بروز حركة وطنية جديدة في العراق تمهد لتأسيس منظومة وطنية عراقية ديموقراطية لصالح العراق والأمة التي ينتمي إليها.
- تخفيف الحصار على القضية الفلسطينية وتفعيل المقاومة وإرادة التحرر من الاحتلال الإسرائيلي.
- إضعاف الأنظمة العميلة في المنطقة وبروز جيل مقاوم جديد في العالم العربي والإسلامي يأخذ المبادرة ويستلم زمام الأمر مما قد يمهد لعمل عربي جديد بديل للجامعة العربية وعمل إسلامي جديد بديل للمؤتمر الإسلامي.



الفصل الخامس

ما العمل ؟

انطلاقا مما سبق يتضح بأن الأمر خطير وأن منطق صدام الحضارات الذي تريده أمريكا ينبغي أن يُواجه بعمل جاد يصده، تشارك فيه كل القوى في الأوطان العربية والإسلامية والإنسانية وإلا فسدت الأرض وخربت القيم والملل **﴿و لَوْلا دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُم ببَعْض لَّفَسَدَت الأَرْضُ﴾** (البقرة : ٢٥١)، **﴿و لَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم ببَعْض لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ و بِيَعٌ و صَلَوَاتٌ و مَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾** (الحج : ٤٠) فما العمل إذن لمواجهة هذه التحديات الخارجية ؟

أولا : دعم المقاومة ضد الاحتلال الأجنبي في العراق واعتبار ذلك واجبا شرعيا وضرورة قومية ووطنية لما يحمله هذا الاحتلال من مخاطر على ديننا ومقدساتنا وأمتنا ومصالحنا كأفراد ومجموعات، ورفض التواجد الأجنبي في كل البلاد العربية والإسلامية بكل الوسائل المتاحة والمناسبة وإفساد المخططات الأمريكية الصهيونية في المنطقة، وقد تحدثنا عن فوائد هذا العمل في الفقرة السابقة ولا بد للمقاومة أن تكون داخل العراق وأن تكون مزدوجة تعتمد السلاح لمكافحة المحتل كما تعتمد الأساليب السلمية السياسية والدبلوماسية والإعلامية والثقافية والاجتماعية .

ثانيا: توعية الرأي العام العربي الإسلامي والدولي بمخاطر وظلم المنطق العدواني الغربي الأمريكي بأساليب متنوعة وجديدة ومكثفة فإن الله لم يكف عن تسفيه الآلهة الباطلة وكشف عوارها وبطلان أمرها في كتابه إلى حد جعل كل أمل المشركين من رسول الله أن يكف عن تسفيه آلهتهم، وله بعد ذلك ما يشاء، ولكن نبيَّ الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ما كان له أن يفعل ذلك وقد أمره الله بقوله: **﴿فلاَ تُطِعِ**

الكَافِرِينَ وَ جَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ (الفرقان : ٥٢) وهذا يقتضي اعتماد وسائل الإعلام العصرية ذات الانتشار الواسع وعلى رأسها الفضائيات وشبكات الانترنيت باللغة العربية والأجنبية والإنتاج الفني والإبداعي كالسينما والمسرح وغير ذلك وتعديد المحاولات على كل المستويات ليبرز منها الصالح الذي يثبت مع مرور الزمن.

ثالثا: رفع القوى المعنوية لشعوب الأمة الإسلامية وربطهم بالله والتوكل عليه وتوعيتهم بأن القوى الاستكبارية الغربية ليست قدرا محتوما مدى الدهر وأن مقاومتها واجبة وممكنة وأن نظامها الجديد هو سبب تفكيك الكرة الأرضية بشهادة قادة ومفكرين كثيرين من أهل تلك الديار[١].

رابعا: دراسة المجتمعات الغربية من داخلها لاكتشاف وإبراز مقاتلها. علما بأن هذا الأسلوب هو الذي أوتينا من جانبه، فالكل يعلم بأن حركة الاستشراق التي اهتمت بدراسة المجتمعات الإسلامية، وثقافتها، وتقاليدها، ولغتها، وتاريخها، ومذاهبها هي التي مهدت للاستعمار والتبشير، ومكنته من السبل والمنافذ التي دخل منها. وهذا الذي تهتم به أمريكا اليوم، حيث نجد أنها تتوفر على عشرة آلاف مركز للدراسات والبحوث، كثير منها مختص في دراسة العالم الإسلامي. ولما سقط شاه إيران وقعت هزة في أمريكا، لأن قادتها لم يكونوا يتوقعون ذلك، وبعد الدراسة اكتشفوا بأن سبب هذه المفاجأة هو أن وكالاتها المتخصصة كانت تجهل تماما الواقع الفكري، والتشكيل الثقافي للشعب الإيراني ولم

---

(١) انظر مثلا:.

Paul Kennedy, edition Odile Jacob, mars 1996 Preparer le XXI Siecle.

يكن يتوفر لها محللون يجيدون اللغة الفارسية، ويجهلون طرق التفكير الإيراني، والثقافة الشعبية في إيران[١]. يذكرنا هذا بالأثر الذي ورد لنا عن رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: "من تعلم لغة قوم أمن شرهم" وبالحديث الصحيح الذي يأمر فيه الرسول زيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود قائلا "تعلم كتاب يهود فإني لا آمنهم على كتابي" ففعل ذلك زيد وحذقها في أقل من خمسة عشر يوما[٢].

خامسا: الاتصال والتعرف على القوى الفكرية في الغرب الرافضة لغياب البعد الإنساني في الحضارة الغربية والعمل المشترك معها ومخاطبة الرأي العام الغربي عن طريقها علما بأن هذا التيار بدأ يتشكل ويتعاظم في كثير من البلدان الأوربية وأمريكا وسيكون له شأن في المستقبل كما سنبين لاحقا.

سادسا: الاهتمام بالجالية المسلمة في المهجر وتفعيلها وتوجيهها نحو تحقيق الأهداف وإيثار العمل والجد وبناء المؤسسات المتنوعة ذات التأثير على المجتمعات التي يعيشون فيها كمواطنين، والتعاون على ذلك بعيدا عن الخلافات المصدرة من الأوطان الأصلية. إن الوجود الإسلامي في بلاد الغرب بإمكانه إن كان فاعلا أن يؤثر على القرار السياسي والتوجه الفكري والإعلامي في هذه البلاد، وذلك باعتبار الكتلة التي يمثلها، والقوة المالية التي يمتلكها، والثروة الثقافية التي بحوزة نخبه، علما بأن عدد المسلمين في أمريكا مثلا هو ذات عدد اليهود (أي خمسة ملايين) الذين

---

(١) عمر عبيد حسنة، مرجع سابق، ص ٨٦.

(٢) انظر: مقال منير شفيق: معارضة السياسة الأمريكية واجبة وممكنة، جريدة الإنسان، عدد ١٣، مارس — أبريل ١٩٩٥.

يضمنون وجودهم وتفوقهم في فلسطين من خلال التأثير على السياسة الأمريكية، أما في فرنسا فإن الإسلام هو الديانة الثانية، وعدد المسلمين فيها يتجاوز الأربعة ملايين.مع الملاحظة بأن ذلك لن يتأتّى إلا بانتهاج العمل الهادئ الهادف وتوفير شروط التعايش التي تقوم على أساس التحاور والتفاهم والتعاون مع أهل البلدان الأصليين على ما يخدم الصالح العام ويوفر الرخاء والرفاهية والكرامة للجميع وتقليص مساحات الخلاف التي لا تمتد إلا بسبب الجهل وعدم التواصل وخلط الأمور بعضها ببعض وعمليات التشويش والتغليط التي يقوم بها المتطرفون من الجانبين بالإضافة إلى ضرورة احترام المسلمين للقوانين المعمول بها في البلاد المضيفة واحترام هذه الأخيرة للخصوصيات الثقافية.

سابعا: مقاومة الهيمنة الاقتصادية الغربية وسياسة "العولمة"، باعتماد أساليب "حرب العصابات الاقتصادية"[(١)] باعتبار أن المواجهة أصبحت غير ممكنة، مثل أن ترتفع قوة التأثير في الجماهير لتصل إلى إقناعهم بضرورة مقاطعة سلع الدول الأجنبية المعتدية وعلى رأسها أمريكا ، وإعطاء القدوة والمثل في ذلك. وكذا اعتماد الأساليب العلمية في نقد مفهوم اقتصاد السوق عند الغرب الذي لا يهدف إلى تنمية الدول التي يستقر فيها وتلبية حاجيات شعوبها، بل كل ما يريده هو إبطال معنى الحدود بغرض تعويم الأسواق بسلعه، وإنشاء رغبات استهلاكية جديدة لا يحتاج إليها الناس، وذلك بواسطة وسائل الإعلام والبث الإشهاري المكثف.

---

(١) انظر: مقال ادغار بيزاني (Edgar Pisani) "معا جميعا ضد العولة" جريدة العالم الدبلوماسي عدد ٥٠٢، جانفي ١٩٩٦ سنة ٤٣.

لا شك أن أساليب المقاومة هذه صعبة ولكنها واقعية بكل تأكيد إذا وجد لها الرجال الأقوياء بعدد كاف في كل مكان بالإضافة إلى أنها سلمية ولا شأن للصراع على الحكم فيها. إن هذا النوع من المقاومة يحتاج إلى عمل مرحلي وسعي جاد لإيجاد البدائل وتشجيع البضائع التي تصنع في البلاد الإسلامية عموما.

ثامنا: المساهمة الفعالة في تنمية البلدان العربية والإسلامية والتعاون لهذا الغرض مع كل القوى الوطنية ولو كانت تختلف مع أفكارنا وتوجهاتنا والابتعاد عن المواقف الانتقامية المدمرة التي تضر بنمو الأمة وتطورها (علما بأن هذه المواقف المخالفة لمصالح الأمة لا تمس مصالح الحاكم في شيء) فلقد عاهد الرسول عليه الصلاة والسلام اليهود (قبل أن يظهر غدرهم) من أجل مصلحة المدينة، فنقرأ في بند من بنود الصحيفة: "وبينهم النصر على من داهم يثرب" وفي رواية لابن هشام: "وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم".

تاسعا: كشف العملاء والعاجزين من بني جلدتنا الذين يضمنون مصالح الأجانب في ديارنا ويوهمون شعوبنا الناهضة بأن عجزهم عن اللحاق بالشعوب (البيضاء) الأوربية والأمريكية ناتج عن الخصائص والمقومات الأصلية التي تميزها، فلا بد أن تتخلى شعوبنا –حسب زعمهم- عن أصالتها ومقوماتها وتقبل التبعية والاندماج في المجتمعات الأوربية رغم أنها تستعبدها وتستغل ثرواتها وتستذل شعوبها[1]... كما ينبغي كذلك كشف أولئك الذين عجزوا عن صيانة سيادة الأمة التي

(١) انظر بحث توفيق الشاوي في كتاب: الحركة الإسلامية: رؤية مستقبلية، دار البراق للنشر، تونس ١٩٩٠.

وضعتها الشعوب بين أيديهم لضعف في أنفسهم أو مصالح يشتهونها، فلا بد من مقاومة هؤلاء وهؤلاء دون هوادة إلى أن يستقيموا أو يرحلوا من خلال نضال سياسي ليس المجال للحديث عن أسسه وطرقه في بحثنا هذا.

عاشرا: المساهمة في الإسراع بظهور أقطاب عالمية أخرى توفر للأمة هامشا أوسع للتحرك السياسي والاقتصادي والأمني وذلك بتوجيه الأنظمة إلى توطيد العلاقات والمبادلات والتعاون مع دول شرق آسيا وخاصة الصين باعتبارها أنها المرشح الأول للتحول إلى قطب عالمي جديد وباعتبار أن تأثيراتها الثقافية السلبية على شعوبنا منعدمة.

يقول هنري كيسنجر في كتاب الدبلوماسية: إن الصين، بمعدل نموها الذي ارتفع من ٨ إلى ١٠ بالمائة وما تتمتع به من حس تماسكي وطني قوي وجيش يتقوى أكثر فأكثر، ستتأكد أكثر من غيرها بين القوى الأساسية في العالم(١). ومع هذا التوجه الاستراتيجي لا بد من المحافظة على المصالح المشتركة التي تجمعنا بالدول الغربية خاصة أوربا بسبب قربها من بلداننا وما يمكن القيام به في هذا الاتجاه دعوة الدول لتخفيض نسبة الغطاء المالي المخصصة للدولار الأمريكي والاتجاه نحو التعامل باليورو بدل الدولار.

---

(١) Henry Kissinger, La diplomatie ,edition Fayard 1996 p 757.



الفصل السادس

فضاءات الأمل

إن ما ذكرناه من تحديات خارجية، ومعوقات داخلية، ومقتضيات صعبة المنال يجب القيام بها، كل ذلك يلقي في القلب نوعا من الهم والحيرة، ويطرح على الذهن تساؤلات عن مصير هذه المعركة، فيقول القائل هل سيأتي يوم تتحقق فيه الآمال وتزول الآلام. إن هذه الحيرة مشروعة وطبيعية، بل قد تكون إيجابية إذا اعتصم صاحبها بالله وارتبط بحبله ووحيه، لأن هذا الهم سرعان ما يتحول إلى عزيمة قوية وهمة عالية كلما تذكر الإنسان الآيات وراجع السنن، فيعمر القلب عندئذ باليقين، ويغمر الصدر بالسكينة، فتهون التضحية ويحلو العمل وترتسم في الأفق ركائز وأعمدة الأمل الراسخة كرسوخ أعمدة السماء التي لا ترى.

إن هذه الأمة لا تموت، تمرض ويصيبها الوهن كغيرها من الأمم، ولكنها لا تفنى كما تفنى الأمم الأخرى، تخضع لقانون الدورات الحضارية التي اهتدى إليها بحق علماء التاريخ والحضارة والاجتماع ولكنها لا تموت.... شهادات التاريخ والواقع والنصوص تؤكد ذلك.

لن نطيل الحديث عن شهادات التاريخ وشهادات النصوص ولكننا نتوقف أكثر عند شواهد الواقع ليقتنع من ليس في قلبه يقين ممن لا تكفيه النصوص ووقائع الزمن:

١- شهادة التاريخ:

لقد تعرضت الأمة إلى هزة عنيفة مباشرة بعد وفاة الرسول ﷺ إذ ارتدت العرب قاطبة وبقيت الثلة المؤمنة الأولى محصورة في المدينة، تكاد تيأس في مجملها، فتحركت عزيمة رجل واحد أعادت الأمور إلى نصابها والمياه إلى مجاريها. ثم شبت نار الفتنة الكبرى على عهد عثمان بعد ذلك، على يد اليهود وبقايا المجوس ورعاع العرب ضعاف الإيمان،

وبقيت الفتنة ملتهبة حتى أزالت الخلافة الراشدة، وتحول الأمر إلى ملك عضوض. ورغم انتهاء الخلافة الراشدة في ساحة الحكم فقد بقيت حاضرة بمضموها في المجتمعات الإسلامية، في المجال العلمي والتربوي والثقافي، يقودها ورثة الأنبياء الذين كانوا في كل الفترات هم الأعلام، ومن ظلم من الحكام أمامهم نكرات ، فبقي أصل الدين قائما في الشعوب، مهما انحرف الحكام[1]، يتجدد وينشر خيره وعدله، ليصنع الحضارة التي بلغت من الرقي والسؤدد ما بلغت، يتعاقب الحكام، منهم الصالح والطالح، فيتعاقب بينهم اللواء، كلما سقط الواحد منهم، لضعف في نفسه أو لدسيسة تصيبه، يحمله آخر فتعاقب عليه العرب والفرس والترك والهنود والمغول وغيرهم. ولما سقطت الخلافة العثمانية التركية وعزم اليهود والنصارى على إفراغ الأمة من محتواها وتجريدها من هويتها وانتمائها لعلمهم بأن ذلك هو سبب صمودها وتجددها عبر تلك القرون كلها، بعث الله رجالا أنشئوا دعوات وحركات لإبطال ذلك الكيد، وهاهي هذه الحركات تستعد اليوم لإعادة البناء...وإن ذلك الغد لقريب.

٢- شواهد النصوص:

لقد تعهد الله بهذا الدين، ولا يخالط قلب مؤمن الشك بأن الله ناصر دينه، كل الأدلة الشرعية تدل على ذلك، المنطوق منها والمفهوم. أما المفهوم فهو ما ندركه من معنى حفظ الله لكتابه من التحريف وأمة الإسلام من الاجتماع على الضلال، وبقاء طائفة ثابتة على الحق في كل

---

(١) انظر: كتاب الشيخ محمد الغزالي "معركة المصحف في العالم الإسلامي" مكتبة رحاب — الجزائر ص٧٠.

عصر، وأن العشرين من المؤمنين يغلبوا المائتين وأن تسليط الأعداء على مسلمين إنما هو إيذاء وليس تسليط استئصال. وأما المنطوق فمنها قوله تعالى: **﴿هو الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالْهُدَى و َدينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ و كَفَى باللَّهِ شَهِيداً﴾** (الفتح : ٢٨) وقول الرسول ﷺ: "لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذل ذليل إما يعزهم الله عزّ وجل فيجعلهم من أهلها أو يذلهم فيدنون لها" رواه الإمام أحمد في مسنده.

٣- شهادات الواقع:

إن الواقع يدل حقا بأن الهيمنة الأمريكية قد أخذت طريق السقوط الحضاري وأن مشاكلها الداخلية تتفاقم بشكل متزايد ولا يمكنها أن تستمر في تجاوز معضلاتها باستغلال الآخرين. كما أن البشرية قد ضجرت بطغيانها وقد أخذ الاعتراض عليها يتعاظم يوما بعد اليوم، ولا شك أن هذا الحال سيصل يوما ما إلى تقويضها من داخلها:

أ – واقع المعضلات الداخلية:

إن الولايات الأمريكية المتحدة بقدر ما لديها من قوة فإنها تشكو من أمراض فتاكة جعلت الكثير من قادتها ومفكريها المتخصصين في دراسة المستقبليات يقرعون أجراس الخطر ويتنبئون باقتراب زوال الهيمنة الغربية عموما والأمريكية بصفة خاصة، يقول بول كندي:"باستثناء بعض المتفائلين التابعين للمدرسة القديمة أمثال جورج جلدر وبان فادنبارغ الذين يؤكدون بأن البلد يتقدم بلا مشقة، فإن الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ على مستوى النسيج الاجتماعي، والعلاقات العنصرية، والتعليم العمومي، والإنجازات الاقتصادية ووضعية الأسرة الأمريكية

المتوسطة وإن الأمور ستكون أسوأ بالنسبة لأبناء هذه الأسر وأبناء أبنائهم" بل منهم من يعتبر بأن أمريكا بلغت درجة كبيرة من القابلية للبدء في الانهيار ولا يؤخر ذلك إلا ضعف منافسيها كما يؤكد ذلك بول ماري دولاغورس (*aul Marie De La Gorce*)[١].

إن توالي الانهيارات والفضائح المالية لشركات تعتبر رموز الليبيرالية الجديدة كشركة انرن (Enron)في ديسمبر ٢٠٠١م وورلدكوم (WorldCom) في جويلية ٢٠٠٢م كشف في نفس الوقت تعطش أرباب الجهاز الليبيرالي للثراء واعتمادهم على الغش لإخفاء تدهور مردودية مؤسساتهم والانهيار العام للعناصر الفاعلة في المنظومة النقدية الأمريكية ومنها مؤسسات الرقابة والتنظيم[٢] مما جعل ألان غرينسبان (Alain Greenspan)رئيس الاحتياط الفدرالي الأمريكي يعترف بأن النظام الليبيرالي الأمريكي قد تشقق.

لقد اعتبر كثير من الاقتصاديين العالميين بأن الحروب التي تخوضها أمريكا في هذا العقد الأخير من الزمن تهدف ضمن ما تهدف إلى إخفاء عجز النظام الليبيرالي الجديد وضمان استمرار حياته بالاستيلاء على خيرات وطاقات العالم وفرض فرص جديدة لانتعاش الاقتصاد الأمريكي الراكد من خلال ذلك. فالعدوان الأمريكي على العراق جاء في سياق

---

(1)Paul Marie De La Gorce, le XXI siecle sera t' il americain edition Grasset 1996.

(2)Michel Fried Laffaire Enron ou les derives du capitalisme actionnarial L etat du monde 2003 La decouverte.

اقتصادي أمريكي لم يتوقف عن التدهور حيث بلغ معدل البطالة أعلى نسبة له منذ تسع سنوات: ٦,٤ بالمائة من السكان المقبلين على العمل، وتدحرج النمو إلى حدود ١ % في الثلاثي الأخير من سنة ٢٠٠٢ في وقت يستمر فيه ركود البورصة. ومنذ انتخاب بوش فقد الدولار ١٥ بالمائة من قيمته في مواجهة اليورو كما أن قيمة الاستثمارات الأجنبية في الولايات الأمريكية تراجعت إلى ٨٥ بالمائة. وفي هذا السياق يأتي سقوط الإنفاق العائلي وانهيار ثقة المستهلك وانكماش القطاع الصناعي ليكمل سواد الوضع الاقتصادي في أمريكا[١] ويفسر حاجة أصحاب القرار في البيت الأبيض لإشعال الحروب.

لا شك إذن أن مكامن الضعف في المجتمعات الغربية كثيرة ومعترف بها، وما ينبغي التركيز عليه في عملية تهوين نظرة الاستعصاء والاستعلاء الأمريكية التي تحاول الأفلام الأمريكية ترسيخها في أذهان سكان الكرة الأرضية ، هو فقدان البعد الإنساني في حضارتها باعتبارها حضارة مادية لا تهتم بكرامة الإنسان، ولا تقيم وزنا للحس والمعنى.

وما يمكن أن نذكره من مؤشرات في هذا الإطار تدل على بطلان النموذج الغربي الذي تتزعمه أمريكا وتؤذن باقتراب نهايته ما يلي:

- تفكك النسيج الاجتماعي بسبب طغيان الأنانيات واللامبالاة على حساب الضمير والمسؤولية الجماعية.
- انتشار الفقر واللامساواة والفروق الاقتصادية والثقافية التي تقسم هذه المجتمعات رغم المحاولات اليائسة التي يقوم بها الساسة.

---

(١) Ibrahim Ward, Lordre americain coute que coute Le monde diplomatique, Avril 2003.

والغريب أن هذه المؤشرات تشبه إلى حد كبير الأسباب التي كانت وراء انهيار الحضارة الرومانية. فلو قارنا المجتمع الروماني على عهد نيرون بالمجتمع الأمريكي حاليا تتضح معالم الانهيار المشتركة. ففي عهد نيرون كان ستة من الملاك الرومانيين يملكون نصف الولايات الأفريقية في مقابل ٣٢٠٠٠٠ عاطل عن العمل في روما وحدها، مما أدى إلى كثرة الثورات والاضطرابات التي عجلت بنهاية الهيمنة الرومانية. واليوم في المجتمع الأمريكي بلغت الهوة بين الفقراء والأغنياء حدا مذهلا حيث أصبح فيه ١,٥ مليون من الأغنياء الأمريكيين يستحوذون على ما يملكه ١٠٠ مليون من الفقراء... فالشبه إذن واضح ...وكذلك المصير.

-الاهتمام بالحاضر على حساب المستقبل، وبالوسائل على حساب الغايات، والحب المفرط للكسب بأي طريقة. ولعل أحسن ما يجسده هذا ما يتعلمه الطلبة في المعاهد الاقتصادية والمالية الغربية حيث يقال لهم:"إن الغاية من الفائدة (أي الربا) هي الفائدة في حد ذاتها" و"انتشار الرشوة شيء ملازم لتقدم النشاط الاقتصادي والإعلامي..."

-انتشار ثقافة اللاحس وقولبة العقول عن طريق هيمنة وسائل الإعلام.

-انتشار الفرق الدينية وتكاثرها بسبب الخواء الروحي.

-انتشار الجريمة والانحلال والمخدرات وعجز الحكومات المتعاقبة على إيقافها أو الحد منها .

ب ــ واقع تصاعد المعارضة للمنظومة الغربية الصدامية في كل أنحاء الأرض ومن الغرب نفسه:

إن فكرة صدام الحضارات فكرة لا تتحملها المجتمعات الإنسانية ومنها المجتمعات الغربية. إن هذه الفكرة لن تؤدي إلى نهاية التاريخ بل تؤدي إلى نهاية العالم كله. لقد أصبح النظام الليبيرالي الجديد الذي يمثل قوة دفع لمخططات الصدام في العالم يفرض تضحيات أكثر فأكثر على سكان هذه المعمورة. إن معتقد الفائدة والربح الذي يتميز به هذا النظام تجاوز الحد في صناعة اليأس والبؤس، ليس في الدول الفقيرة والنامية فحسب، بل في قلب الدول الغنية كذلك. ولا يهم سادة العالم الجدد المتربعين على عروش المؤسسات المالية الكونية والمتحكمين في القرار الأمريكي إلا مزيدا من الثراء والهيمنة ولا يوقف غلواءهم أحد. فالمؤسسات الأممية صارت أدوات طيعة في أيديهم: الأمم المتحدة، مجلس الأمن، البنك العالمي، صندوق النقد الدولي... كلها جاهزة لخدمتهم بل إنها لم تخدم في حقيقة الأمر غيرهم وإذا لزم صناعة حروب و صراعات لإخفاء هذه الحقائق فليكن ذلك.

غير أن الضجر من هذا الطغيان بدأ يتزايد في العالم كله وفي قلب الغرب نفسه. أصوات عالية بدأت تسمع في كل مكان في أنحاء الأرض... من كل الثقافات والحضارات. أصوات فيها كثير من الصدق والفطرة والتلقائية... أصوات تدعو إلى تحرير الإنسان من الليبريالية الجديدة الأنانية التي لا تصنع إلا مزيدا من الحروب والفقر والأمراض والجهل وتخريب البيئة والمحيط... إنها أصوات تتجمع بشجاعة من كل صوب كلما التقت رموز وأقطاب الاستكبار العالمي (صندوق النقد

الدولي، مجموعة السبعة، البنك العالمي...) لتعبر عن رفضها للأمر القائم. إنها المنظمات غير الحكومية المعارضة للعولمة الليبرالية الظالمة، هذه المنظمات التي استطاعت أن تنشئ حركية جديدة صارت تتعاظم يوما بعد يوم من تجمع إلى تجمع من سياتل (Seatle) إلى جان(Genes) إلى برشلونة (Barcelone)...

لقد أصبحت هذه المنظمات مخيفة حقا بالنسبة للمؤسسات الرسمية الليبيرالية وأصبح صوتها يسمع أكثر فأكثر في الساحات الحكومية والبرلمانية. وقد بدأت آثارها الإيجابية تظهر في مجال العلاقات الدولية. فلا نجد أجرأ منها في فضح الولايات الأمريكية المتحدة بسبب رفضها التصديق على عدد من الاتفاقيات لحماية الطبيعة والإنسان كاتفاقية كيوتو واتفاق منع الأسلحة البالستية والبيولوجية ومحكمة الجنايات الدولية وغيرها واستطاعت بعزمها وإصرارها أن تدفع أغلبية الدول النامية في جنوب الكرة الأرضية للتسلح بإرادة أكثر جرأة في المفاوضات مع دول الشمال. وأصبحت المؤتمرات والاجتماعات الدولية ساحات محاكمة لتعسف الدول الغنية ولقرع أجراس الخطر على ما ينتظر الكون من دمار جراء التمادي في السياسة الدولية القائمة في مجال الاقتصاد والبيئة والأمن. لقد تولت هذه الجحافل الصاعدة الإنابة عنا في مقاومة الجشع الغربي الأمريكي.

لقد أُتِيحَت لي فرص كثيرة للالتقاء بأفراد ومناصري هذا التوجه الإنساني الجديد بمناسبة مهمات برلمانية عديدة وشعرت دائما بأن كثيرا مما يعرضونه من أفكار يتناسب تناسبا كبيرا مع ما تعلمناه في إسلامنا.

كثير منهم يقول أن التوترات القائمة اليوم في أنحاء شتى من العالم سببها اضطراب اللاعدل واللامساواة.

أذكر جيدا قبل خمس سنوات بمناسبة مؤتمر الاتحاد البرلماني الدولي بالقاهرة أن برلمانيا سويسريا أدان بقوة الفوائد الربوية، وظاهرة دوران المال بين الأغنياء فقط من خلال المضاربة في البورصات، وحالة تكنيز المال وعدم توجيهه للاستثمار في المشاريع ذات المنفعة العامة، وتعجب من الانتشار المتزايد للبطالة في عالم فيه كل هذا الثراء، وفيه عمل كثير يمكن القيام به، و في الأخير اعتبر أن الحل لكسر هذه الدائرة الجهنمية هو خلق ضريبة صغيرة تؤخذ من الحركية المالية لتعود لمشاريع مفيدة للفقراء. اتصلت بهذا الرجل وشكرته وأخذت منه وثيقة مداخلته وبقيت أسأل نفسي هل قرأ هذا النائب قوله سبحانه: **﴿كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنيَاء مِنكُمْ﴾** (الحشر:٧) ، وهل قرأ قوله سبحانه: **﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**(التوبة:٣٤)، أم أنه اطلع على موضوع الزكاة ودورها في التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

إن الاتصال بهذه القوى الصاعدة في العالم كله وفي قلب أوربا وأمريكيا أمر ضروري وحيوي، لصالح الأمة ولصالح البشرية كلها، ألم تظهر هذه القوى حيوية أكبر منا في العالم العربي والإسلامي في رفض العدوان على العراق.؟! لا بد من العمل مع هذه التنظيمات وإشعار أفرادها بأن ثمة تقاطع كبير بين ما نريده وما يريدونه، لا بد أن نكسر الصورة النمطية المفزعة التي أوصلتها لهم عنا وسائل الإعلام المناضلة لصالح الاستكبار العالمي.

لا بد أن نعلمهم بأننا نحن كذلك لنا تصور عن العالم يقوم على أساس السلم والعدل والتضامن والمساواة، وأنه بإمكان حضارتنا أن تساهم بكل تواضع في بلورة عالم جديد أفضل من هذا العالم الذي يفرض علينا جميعا. وأننا بكل مسؤولية نقف نحن كذلك بكل عزم ضد الظلم ولو كان الأمر يتعلق بحكامنا، ولو كان الظلم يقترف زورا باسم ديننا وحضارتنا. وأننا من منطلق عقيدتنا نؤمن بلقاء الحضارات للتعارف وليس للصدام قال تعالى: **﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذكر و أنثى و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**(الحجرات:١٣) لا بد أن نقنعهم بأننا لسنا مقاتلين نحترف القتل وأن الحرب بالنسبة لنا ليست غاية نقصدها بل هي أمر كريه في ثقافتنا: **﴿كتب عليكم القتال و هو كره لكم﴾** (البقرة:٢١٦) فإذا فرضت علينا نمارسها بشجاعة ونبل. نقاتل بصلابة ولكن في حدود عادلة حددها شرعنا لا نخرج عنها. وكل عمل عنيف يخرج عن هذه الحدود عمل محرم لا يقره ديننا.

إنه البحث عن تحالف موضوعي مع أشخاص ومجموعات من حضارات أخرى تبحث عن بدائل أخرى أكثر إنسانية وأكثر تضامنا وعدلا مسألة ذات أهمية بالغة إنه طريق مؤكد نحو تغيير العالم إنه الجواب الشافي لدعاة صدام الحضارات.

الخلاصة

حَقًا إنَّ التَّحدِّيَات كبَيرَةٌ... وَالوَاقِع مُرًا... وَالمتُطَلبَّات ثَقِيلَةٌ... فَمَنْ هَوَّنَتْ علَيهِ أحَاديثُ الأمَلِ الطَرِيقَ... وتـاقَ إلَـى ثـوَاب جَزيل. .. فليُشَمِّرْ... وليخْتَصِرُ الزَّمَنَ... وَمَنْ تَهَاوَنَ أو أَبى فـلاً يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ:

﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ﴾(العنكبوت : ٦)

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾(محمد:٣٨)

والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا بالله

د.عبد الرزاق مقري



الفصل السابع

التعقيبات والرد عليها

١- التعقيبات:

المعقب الرئيسي على الورقة - الأستاذ علي البيانوني :

الورقة معدة بشكل جيد وتعكس جهدا كبيرا بذل في إعدادها غير أن لي عليها بعض الملاحظات هي:

أنا أخشى أن توهم مقدمة الورقة التي تحدثت عن صدام الحضارات أن ما يجري على الساحة الدولية من حروب عدوانية تقودها الولايات المتحدة الأمريكية هو تنفيذ لهذه النظرية الصدامية، أو أنها حرب بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، بينما التحليل الموضعي لهذه الأحداث يشير إلى عوامل أخرى تدفع إلى هذا الاتجاه، أهم هذه العوامل تركيبة الإدارة الأمريكية الحالية التي تضم اللوبي النفطي ولوبي تجار السلاح مع اليمين الأمريكي المتصهين والدور الصهيوني ومصالح إسرائيل، ثم الأوضاع الداخلية في أمريكا بعد أحداث سبتمبر بالإضافة إلى المصالح الاقتصادية التي تعتبر عنصرا أساسيا من عناصر الدفع نحو هذه الحرب والطموحات السياسية للهيمنة على العالم.

إن التحليل الموضوعي يوصلنا إلى أن الحرب الراهنة ليست من قبيل صدام الحضارات، وانه ليس من مصلحتنا الدفع تجاه هذا التفسير وان نعزوا كل محاولات الهيمنة إلى هذا التفسير، لاسيما وان قطاعات كبيرة من المجتمع الغربي بما فيها الكنائس يقف معنا ضد هذه الحرب، ثم إن مشكلة الولايات المتحدة ليست مع المسلمين فقط، بل مع قوى عديدة، الأمر الذي يهيئ لنا حلفاء ينبغي أن لا نستخف بدورهم في مواجهة محاولات الهيمنة الأمريكية.

إن هذا يقودنا إلى ضرورة بلورة موقف من قضية صدام الحضارات لأن هذا يفيدنا في كيفية التعامل مع هذا الصراع ويفيدنا في تبني المقاومة المناسبة له.

التحولات الخمس التي عرضتها الورقة ليست حدية، بمعنى انه قد يكون هناك احتمالات أخرى تتداخل فيها هذه الأمور، فقد لا تتم السيطرة الكاملة للأمريكان وربما يكون هناك احتمال آخر هو مزيج لعدد من هذه الاحتمالات.

ينبغي الإشارة في محور (ما العمل) إلى التعاون مع العربية والإسلامية والعالمية لمواجهة المخطط الأمريكي والتي معنا في نفس الخندق وترفض التفرد الأمريكي غير المسؤول.

د. عزام التميمي :

لقد كان من المناسب جدا أن يبدأ الملتقى بهذه الورقة التي تمثل فاتحة لتناول المخطط الأمريكي حتى نفهم الأساس الأيديولوجي والفكري لهذا التحرك ولقد حاولت الورقة أن تفعل ذلك والمحاولة جيدة. النقطة التي أحب أن أعلق عليها هي مسألة ارتباط المصالح بالأيديولوجيا، وأنا فهمت من الدكتور عبد الرزاق انه لا يوافق الجابري فيما ذهب إليه، بمعنى انه يرجح اعتبار الأيديولوجيا كمنطلق للتحرك الأمريكي، وهي مسألة جديرة بالنقاش لأننا نحن الإسلاميون نغلب هذا الجانب ونظن أن الآخرين يفكرون كما نفكر، والورقة أشارت إلى الفرق بين الفتوحات الإسلامية والحملات الصليبية وأن الأولى تنطلق من نشر الإسلام وحمل رسالته إلى العالم فيما كانت منطلقات الآخرون مصالح اقتصادية. في الدراسات الموضوعية الغربية هناك تأكيد على أن كل هذه الحروب، والتي سماها المسلمون حروب الفرنجة وليست الحروب الصليبية، ودخول الأوروبيون إلى مناطق أمريكا الجنوبية قد رفعت

فيها شعارات الدين، والنظام العنصري في جنوب أفريقيا غلب عليه خطاب ديني يبرر العنصرية، والمشروع الصهيوني في فلسطين الذي حمل أطنان من التعابير الدينية، هذه جميعاً ليست لها علاقة لا بالدين ولا بالأيديولوجيا، لها علاقات بمصالح واحتياجات الدول الغربية وعمل الدين والأيديولوجيا كمبرر لهذه الأعمال فهذه الأعمال إجرامية تقتضي تفسيراً وتبريراً وافضل تبرير لذلك تحميلها على شيء مقدس هو الدين، والمستوطنون اليهود يستخدمون هذه الذريعة، هناك مستوطنة يهودية أجرى معها تلفزيون الـ BBC مقابلة يسألها المراسل أنت جئت من الخارج وتقيمين في أرض هجّر أهلها وهم ينظرون إليك في مخيمات اللاجئين فما هو شعورك ؟ قالت: لو أن الله لم يأمرني بذلك لكان ما أقوم به عملاً إجرامياً، فالمصالح هي الأساس والدين يستخدم كمبرر.

النقطة الثانية: حول ما أشارت إليه الورقة من كون حماية أمن إسرائيل وضمان توسعها هدف أساسي من أهداف الحملة الأمريكية على أفغانستان والعراق، وأنا استبعد ذلك فهناك فرق في القول بان إسرائيل تستفيد من حرب معينة وبين أن نقول إن هذه الحرب تهدف إلى ذلك، ففي ما يتعلق بموضوع أفغانستان فان الحرب التي شنتها أمريكا جاء بسبب تحول طالبان من أداة يد أمريكا إلى خنجر في خاصرتها هذا بالإضافة إلى المطامع البترولية الاستراتيجي...الخ ولو ظل الطالبان أداة طيعة لاستخدم الأمريكان أسلوباً آخر في تحقيق مآربهم.

الشيخ راشد الغنوشي:

جزا الله خيراً الدكتور عبد الرزاق على تفسيره الواسع للتحركات الأمريكية، غير أن لي بعض الملاحظات عن الورقة:

إن تقديم الولايات المتحدة الأمريكية على أنها امتداد التراث اليوناني فضل نضيفه عليها لا تستحقه، فالأمريكان يحرصون على التأكيد على الارتباط وهذه فرضيات غير صحيحة حيث أن مفهوم الغرب حديث وأوروبا تأسست في مواجهة الإسلام ممثلا في العثمانيين فلا ينبغي أن نقول أن هناك تواصل حضاري ما بين تراث اليونان وما بين رامسفيلد!! فالثاني لا علاقة له بالحضارة والفلسفة فهو وجماعته لقطاء لا تاريخ لهم وترجع أصولهم إلى النفايات التي قذفت بها أوروبا إلى الخارج، إلى استراليا ونيوزلندا وأمريكا.

إن القول بأن الولايات المتحدة تسعى لتطويق أوروبا الصاعدة يوضح بأنه ليس هناك غرباً واحداً، ونحن نسقط في شباك المقولة التي ننتقدها والمتعلقة بصدام الحضارات وأن هناك حضارة غربية تقودها أمريكا في مقابل الحضارات الأخرى، بينما الغرب نفسه يشهد صراعات في داخله وأمريكا تحاول أن تخنق دول أوروبا. ففرنسا مهددة بأن تدفع ثمن مواقفها كما ورد على لسان رامسفيلد.

أنا اعترض على القول بأن المعارضة الأكبر للسياسة الأمريكية تأتي من خارج الغرب، بل هي من داخله، فمن هدد بالفيتو ليس دولة عربية أو إسلامية، فالولايات المتحدة الأمريكية تجد التضييق سواء على المستوى الرسمي الحكومي أو الشعبي الجماهيري تجده من داخل الغرب أكثر مما تجده من داخل الحضارات الأخرى بما فيها الإسلامية. فهم مهددون بما لا يقل على التهديد الذي نواجهه من قبل هذا الطغيان الأمريكي الذي يحاول أن يضفي على نفسه شعارات الديمقراطية والدفاع عن حقوق الإنسان بل هو يمثل، كما سماه وزير خارجية سوريا فاروق الشرع، عملية سطو مسلح أكثر منها تصدير حضارة وما إلى ذلك.

أشارت الورقة إلى أن المؤسسات الحقوقية ليست منفصلة وتتبع السياسة الأمريكية وهذا من قبيل المبالغة، نحن كإسلاميين ينبغي أن نقتصد فيه، ولو حضر أحدهم معنا لترددنا في ذكر ذلك. ولو واجه أحدنا صعوبات لاتجه إليهم، ولو هجّر الدكتور عبد الرزاق من بلده، أسأل الله أن لا يهجّر، لبحث عن هؤلاء ليعينوه، والحقيقة أن أمريكا نفسها تنتقد من قبل منظماتها مثل American Human Watch وكذلك توجه منظمة العفو الدولية انتقادات شديدة للولايات المتحدة ولبريطانيا، وأنا تابعت انتقادات منظمة العفو للنظام الجزائري ونتمنى أن نكون نحن الإسلاميون في مستوى حساسيتهم ومبدئيتهم فيما يتعلق بمسائل حقوق الإنسان.

د. رفيق عبد السلام:

لا شك أن السياسة هي التي تؤثر بشكل مباشر في ساحة الفكر وان المصالح تسهم بشكل مباشر في تشكيل معالم الرؤية والخطاب، لذلك ترجح اتجاهات في الثقافة والفكر على حساب اتجاهات أخرى. ما الذي أعطى مشروعية لكتاب صموئيل هنتنجتون "صدام الحضارات" الذي كان مجرد مقال يتيم نشر عام ١٩٩٣ على حساب غيره من آلاف المقالات التي كتبت في نفس الموضوع ؟ وما الذي أعطى مشروعية لكتاب فوكوياما على حساب آلاف من الكتب والمقالات التي كتبت في مجال المقارنات الحضارية والثقافية وعن عالم الإسلام ؟ أنها المصالح السياسية والاستراتيجية وميزان القوى على الأرض، ولذلك تحولت هذه الكتابات من طور الهامشية إلى طور الفاعلية والحضور والتبني من قبل السياسات الرسمية، رغم أن هذه الكتابات،لا تلقى قبولا. فقد دعي فوكوياما إلى جامعة Westminster وتوفرت فرصة للحديث الجانبي معه تبين أن معرفته بالإسلام تكاد

تكون معدومة تماما ولكن أخذت هذه الكتابات حيزا من الاهتمـــام لأنها تنسجم والهيمنة الأمريكية على حساب كتابات أخـــرى. هـــذا التيار هزم في الحقيقة، خاصة مع مطلع الأربعينـــات والخمســـينات إلى الثمانينات، ما يعرف بتيار الماهوية الثقافية الذي يقيم خنادق متقابلـــة بين الثقافات، هزمته أدبيات ما بعد الكولونيالية، وتقرءون كتابـــات إدوارد سعيد التي أصبحت تدرس في الجامعات الغربية، لقـــد تراجـــع لصالح تيار التأويلية المؤكد على تعادل الثقافات والتساوي بين الرمـــوز الثقافية وأنه لا توجد ثقافة متفوقة على حساب ثقافة أخرى، ولكـــن يبدو أنه أخذ يستعيد مواقعه بعد نهاية الحرب الباردة التي وفرت مناخـا مناسبا للصدام بين الثقافات استنادا إلى مصالح عســكرية واقتصاديـــة وسياسية.

النقطة الأخرى:أن أول من كتب حول مفهوم أوروبا هو أرســطو بإشارة بسيطة إلى كونها لا تخرج عن حدود أثينا وما يقع خارجها كان يسميه بالبرابرة، ثم التقط هذا المفهوم في القرون الوسطى حيث بـدأت تتشكل ملامح أوروبا في مواجهة المد العثماني ولكن حتى إذا تجاوزنـــا هذا الاعتبار فإنه لاشك أن هناك المصالح السياسية التي تحرك مختزنـات ثقافية على حساب مختزنـــات أخـــرى. إذا نظرنـــا إلى المختزنـــات الأوروبية وموقفها من الإسلام نجد أن هناك مشكلة حقيقية بدليـــل أن أغلب من أشرفوا على صياغة هذه الرؤية هـــم مـــن تكلمـــوا عـــن الكنيسة، فيوحنا الدمشقي كتب كتاباً في تصنيف أنواع الهرطقـــات وصنف الإسلام ضمن اكثر الهرطقات سوء وخطراً على المســـيحية، وكان السؤال المحوري هو كيف يمكن لهذا الدين المتهرطق المنحرف أن ينتصر على الدين القويم ؟ وكانت الإجابة أن الانتصار من عدمـــه لا علاقة لها بالحقيقة الدينية، والقصور يعـــود إلى خلافـــات المســـيحيين

وانقساماتهم الداخلية بسبب الصراعات الدينية. وفي هذه المرحلة والتي تشكلت فيها ملامح أوروبا الحديثة التي تطمح إلى السيطرة على العالم انقلب السؤال وأصبح التفسير أن الذي جعل أوروبا تنهض هي مقومات الدين المسيحي والذي جعل عالم الإسلام يرتكس إلى عالم التخلف والجمود يعود إلى مقتضيات الحقيقة الدينية وإلى قصور ذاتي في التصور الإسلامي، وهذه النظريات تلقى رواجا في الكتابات الغربية وانتقلت من مجال الثقافة إلى مجال علم الاجتماع، ابتداء من كتابات ماكس فيبر في تحليله لنشأة الرأسمالية الحديثة وبنية الدولة الحديثة والاقتصاد الحديث في أوروبا المسيحية وتحديداً أوروبا البروتستانتية حيث لم تنشأ في مناطق أخرى من العالم، والجواب واضح ويعود إلى عوامل رئيسية مختزنة في الثقافة وهي أن الثقافة البروتستانتية لها مختزنات ومحفزات أساسية لمراكمة الثروة والديناميكية الداخلية خلافاً للثقافات الأخرى وخاصة ثقافة الشرق الأقصى والشرق الأدنى ومنها الثقافة الإسلامية. وما نلاحظه الآن أن الخارطة الثقافية يعاد تشكيلها على ضوء المصالح السياسية، كما قسمت في السابق على ضوء المصالح ذاتها.

أين تصنيف روسيا تاريخياً؟ هي تصنف ضمن دائرة أوروبا ولكن الصراعات والتحالفات أثناء الحرب الباردة أخرجت روسيا وأوروبا الشرقية من دائرة الفضاء الأوروبي وصنفت بالشرق أمام الغرب الذي يضم أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية.

الآن هناك اتجاه لإعادة رسم الخارطة حتى داخل الغرب الأوروبي الأمريكي من خلال تشكل ما يسمى بالغرب الأطلسي الانجلوسكسوني مقابل الغرب القاري ومقدماته تظهر في الصراع حول العراق، وهناك حديث عن هذا الانقسام.

أخيرا فإن السياسة الأمريكية الراهنة لن تكتفي بتقسيم العالم إلى شرق وغرب أو إلى غرب انجلوسكسوني أطلسي مقابل غرب قاري أوروبي، بل ستفتح مواقع وتفرض تقسيمات جديدة للعالم لأنها تبحث عن السيطرة وكل عملية سيطرة تحتاج إلى مشروعية معينة، إلى أيديولوجية وخطاب وإذا قرأتم استراتيجية الأمن القومي الأمريكي التي تتجه إلى إعادة تشكيل النظام الدولي على مستوى حركة الجيوش وعلى مستوى المصالح الاقتصادية والتي لا تمس العالم العربي والإسلامي فحسب، بل تمس كل مراكز القوى العالمية ولذا سنكون أمام مواقع وخنادق ثقافية كثيرة وليس مجرد شرق وغرب.

د. فريد الشيال:

أكرر الشكر للدكتور عبد الرزاق على هذا الجهد وأبدي بعض الملاحظات:

فيما يتعلق بالانقسام في المواقف الغربية التي أشار إليها الشيخ راشد، نعم هناك محاولة أوروبية للوقوف ضد الطغيان الأمريكي وان أوروبا الموحدة هي المرشحة لإعادة التوازن للمسرح الدولي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، ورأينا كيف عارضت الأمريكي هذا خاصة في مواجهة اليورو ومحاولة استقلال المجموعة الأوروبية بقراراتها وعلى رأسها فرنسا وألمانيا. ولكن بريطانيا لها وضعها الخاص، فمن الناحية الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والثقافية تتأرجح بين الانضمام إلى أمريكا أو إلى أوروبا وما لهذا من أثر على انضمامها الكامل لأوروبا من الناحية الاقتصادية، والمدرسة التي تحكم الآن تحاول أن تجد حلاً وسطاً تحافظ فيها على علاقات قوية مع أمريكا وأن تنمي علاقتها مع أوروبا، وأوروبا الموحدة ترفض هذا وتريد من بريطانيا أن تنضم بشكل كامل أو أن تنفصل وتسير في ركاب أمريكا. وبريطانيا تحاول أن تستفيد من

الناحيتين، وهي تعلم بأن أمريكا تريد الاستئثار بالمغانم كلها دون شريك وقد تأكد هذا لبريطانيا بعد أحداث سبتمبر عندما كانت الدولة الأولى التي تؤيد أمريكا في كل خطواتها وقدمت لها كل الدعم، ومع ذلك ففي فبراير من العام الماضي تلقت الإنذار الأمريكي الذي أيقظها من أحلامها عندما فرضت أمريكا القيود على الصلب البريطاني وأدى هذا إلى ضربة موجعة للصلب وكانت بريطانيا تظن أنها ستلاقي تفضيلاً خاصاً ولكن عندما تتعلق الأمور بمصلحة الاقتصاد الأمريكي فلا رحمة في ذلك ولم تقدر لها ما قدمته، وهذا ما يفسر الانسحاب السريع من العراق من قبل بريطانيا حيث أنها لا تقوى على تحمل نفقات هذا الانتشار لمدة أطول في ظروف تشهد فيها الميزانية عجزاً مستفحلاً.

حول ما أثير من أن أمريكا كانت تخشى المد الثوري الإسلامي بعد الثورة واعتبرت المد الشيعي خطر على مصالحها، أشير أن هناك تفسيرات أخرى تؤكد أن المد الشيعي لم يشكل خطراً على المصالح الأمريكية بالشكل الواضح المحدد، وإنما خدم بقصد أو بدون قصد المصالح الأمريكية لأنه خلق توازناً في المنطقة لصالح أمريكا وأشعل حرباً استفاد الغرب منها فائدة كبيرة وتعطل المد الإسلامي كثيراً وخرجت دولتان من الحساب إحداهما دمرت تماماً، والمسألة واضحة ولا تحتاج إلى كثير تدليل وخاصة أن إيران لم تكن دولة إسلامية تتحرك من منطلق الإسلام وحده، فهي دولة واقعية لها حساباتها ولها مصالحها ورأيناها في مواقف كثيرة تأخذ موقفاً لم يكن متوقعاً ولا ينسجم مع الصفة الإسلامية التي تحملها.

٢- الرد على التعقيبات :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أشكر شكرا جزيلا السادة والأساتذة المعقبين على ملاحظاتهم القيمة عن موضوع هذه المحاولة وقد استفدت منها كثيرا وسآخذها في الاعتبار في مراجعتي للموضوع غير أنني أريد أن أجيب عن بعض ما تفضلوا به من باب التدقيق والاستدراك فمن الواضح أن الوقت الذي منح لي لعرض المحاضرة لم يكن كافيا للتركيز على كل جوانبها وكنت اعتقد أن تسليم الموضوع مكتوبا للمشاركين قبل التطرق له سيساعد على المتابعة وتعويض الوقت ولكن يبدو أن توزيعها في زمن قليل قبل اللقاء لم يمكن الأساتذة على التوقف عند مختلف جوانبها ولذلك أرى من اللازم الإجابة على بعض ما ورد في التعقيبات :

أولا : بخصوص التعقيب الرئيسي للأستاذ الفاضل علي البيانوني.

- إن التخوف الذي أبداه الأستاذ الفاضل علي البيانوني حول إشكالية صدام الحضارات مشروع ومفهوم وليس من مصلحتنا فعلا أن ننخرط فيه وندعو إليه، وفي الحقيقة هذه هي الفكرة الأساسية التي تهتم بها هذه المحاولة، وقد ذكرت في الفصل الثاني (ما الذي يفسر الذهنية الصدامية عند الغرب) بأننا كمسلمين لسنا دعاة صدام بين الأمم والحضارات وأن الله سبحانه أمرنا في كتابه بالتعارف بين الشعوب والقبائل. غير أن هذا لا يجعلنا نُغفل فهم البعد الحضاري في الصراع والعدوان المفروض علينا من الغرب.
- أما ما يتعلق بإمكانية تداخل الاحتمالات الخمسة المذكورة في الفصل الرابع فإن هذا الأمر ممكن، والذي تحدثنا عنه إنما يمثل الإطار العام لما يمكن أن يقع من خلال استقراء الواقع المحلي والإقليمي والدولي.

- وبخصوص ضرورة التعاون مع القوى العربية والإسلامية والعالمية فقد ذكرت ذلك فعلا في الفصل الخامس (ما العمل؟) في النقطة الخامسة (الاتصال والتعرف على القوى الفكرية في الغرب الرافضة لغياب البعد الإنساني في الحضارة الغربية والعمل المشترك معها) ثم ختمت بها البحث في فقرة مطولة في الفصل الأخير .

ثانيا : بخصوص تعقيب الدكتور عزام التميمي :

- حينما تحدثت عن الجابري وذكرت بأنني لا أوافقه في ما ذهب إليه من اعتبار المصالح هي الدافع للعدوان والصدام حددت بأنني لا أوافقه على اقتصار العدوان على الباعث المادي فقط، وذكرت في الفصل الثاني (ما الذي يفسر هيمنة الذهنية الصدامية عند الغرب) ثلاثة أسباب جعلت ضمنها المصالح بعدا أساسيا، بل إن العنوان الذي اخترته يبرز ذلك بشكل واضح : المصالح خصوصا المصالح . وما ذكره الدكتور التميمي على كل حال يؤكد البعد الديني والأيديولوجي ، فالشواهد التي ذكرها تسند هذا البعد بشكل واضح. غير أن الذي يجب التأكيد عليه هو أن الزعماء والقادة تدفعهم المصالح أكثر ويستغلون عوام الناس الذين تحركهم الأيديولوجية والأبعاد الثقافية والدينية وكثيرا ما يلجأ للمؤسسات الدينية لتفعيل واستغلال هذا البعد. وهذا الذي وقع في الحروب الصليبية، وهذا الذي قامت به فرنسا أثناء احتلالها للجزائر حيث كانت الجيوش والعساكر ترافقها الإرساليات التبشيرية . فالأمران في آخر المطاف متداخلان فأبو جهل الذي كان يتزعم معسكر الكفر أنكر الرسالة لأنها جاءت تهدد مصالحه وجاهه فهو الذي قال «تزاحمنا نحن وبنو عبد مناف أطعموا فأطعمنا وسقوا فسقينا .. حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا منا نبي، أنى ندرك ذلك فوالله لا

نؤمن. ولقد قال الله تعالى: **﴿فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾** (الأنعام:٣٣).

- أَما ماَ يتعلق بموقع إسرائيل في مخططات العدوان على أفغانستان والعراق فإن ضمان أمن وتفوق الكيان الصهيوني في المنطقة ثابت أساسي من الثوابت السياسة الأمريكية، ولذلك فإن حضور هذا الكيان في هذا المخطط أمر بديهي في اعتقادي والله أعلم .

ثالثا : بخصوص تعليق الأستاذ الفاضل راشد الغنوشي :

- لا أخالف الأستاذ الغنوشي في أن الحضارة التي تصنعها الولايات الأمريكية المتحدة حضارة تقوم على مواجهة الإسلام كما ذكر، غير أن الارتباط بالحضارة اليونانية والرومانية ثابت من الناحية التاريخية والفكرية والثقافية وهي أشياء تُدرس للتلاميذ في أوربا وأمريكا.
- لقد أشرت-ربما لم أؤكد على ذلك-إلى الخصوصية الأوربية في الحضارة الغربية وأن أمريكا تريد حضارة غربية برأس واحد تتزعمها هي بذاتها، وأوربا تريد غربا برأسين أمريكيا وأوربيا وهذا الذي ظهر في قضية العدوان على العراق حيث توافق الطرفان بشكل ما في الأخير، ولكن الخصوصية بقيت بارزة . وعلى كل حال قد ذكرت أثناء اقتراحي بضرورة التعاون الإسلامي-الآسيوي بعدم الابتعاد كثيرا عن أوربا بل أكثر من ذلك ذكرت بأنه يجب التفكير بالانتقال للتعامل باليورو بدل الدولار في المعاملات الاقتصادية الدولية.
- أما ما يتعلق بالمنظمات الحقوقية العالمية كمنظمة العفو الدولية وغيرها فإنني لا أنكر الدور الكبير والمهم الذي يقوم به المناضلون في هذه المنظمات غير أن هذا لا يحجب عنا ظاهرة التعامل بمكيالين في

قضايا كبرى التي يتحكم فيها رؤوس هذه المنظمات وعلى رأسها قضية فلسطين، ولقد شعرنا بهذه الازدواجية وفق المصالح الأمريكية والأوربية في الجزائر و ذكرت أمثلة عن ذلك في الورقة التي بين أيديكم .

رابعا : بخصوص تعليق الدكتور رفيق عبد السلام :

لا أجد ما أقوله بخصوص تعليق الدكتور رفيق عبد السلام فلقد ذكر حقائق تاريخية وفكرية أوافقه في جلها، غير أنه من قبيل التدقيق فيما ختم به تعليقه أقول بأننا سنكون أمام مواقع وخنادق ثقافية كثيرة ولكنها ضمن أطر حضارية في الغالب فالعالم الإسلامي في مجمله يجد صعوبات كبيرة في التعامل مع الغرب في مجمله رغم الخصوصيات والتنوع عند هذا الطرف وذاك وربما تساعد هذه الخصوصيات في التقارب لو حسن استعمالها من الطرفين .

خامسا: بخصوص تعليق الدكتور فريد الشيال :

لقد سبق لي أن أجبت على الملاحظات التي تفضل بها الدكتور الشيال أعلاه حول موضوع الخصوصية الأوربية في الحضارة الغربية. أما ما أثاره حول موضوع إيران فإنني أعتقد بأنه رغم ما يمكن أن نوجهه من انتقادات للتجربة الإيرانية ورغم الفروق المعلومة في المجالات الفقهية والاعتقادية فإن هذه التجربة تبقى إسلامية بكل تاكيد، ويمكن أن يستفاد منها كثيرا، كما أنه ليس من مصلحة الأمة الإسلامية الابتعاد عن إيران كدولة ومجتمع وتجربة وخصوصية حضارية، مع تأكيدي بأنني لم أفهم مما ذكره الشيال بأنه يقصد ذلك وإنما ذكرت هذه الملاحظة من باب لفت النظر فقط.

وشكرا للجميع.

الفهرس


دار
الكلمة
للنشر والتوزيع